

عصر القط الأسود
نجيب محفوظ

خَمَّارة القِطّ الأسْوَد

مطبوعات مكتبة مصر

خمارة القط الأسود

تأليف

نجيب محفوظ

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه
٣٧ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت [illegible]

كلمة غير مفهومة

تثاءب المعلم حندس طويلا وهو يزيح الغطاء عن جسده • وجلس فى الفراش معتمداً بذراعيه على ساقيه ، متقوسا تحت وطأة غم لاحت آياته فى وجهه الممتلىء العريض • ورأى زوجته واقفة وسط الحجرة وهى تجمع شعرها المشعث تحت منديلها البنى ، فقال بنبرة ناعسة :

ــ حلم غريب •

التفتت نحوه باهتمام قائلة :

ــ خيرا ان شاء الله •

ــ طول الليل مع حسونة الطرابيشى •

تجلت فى عينى المرأة نظرة فارغة من كل معنى فراقبها بعينى صقر تطلان من سحنة أطبقت على أديمها آثار طعنات وجراح قديمة ثم قال :

ــ حسونة الطرابيشى ! •• أنسيت الرجل الذى طمع يوما فى الفتونة ؟

ندت عنها آهة وتمتمت :

ــ نعم •• يا له من عمر ••

ـــ حوالى خمسة عشر عاما ••

ـــ وماذا رأيت ؟

ـــ رأيته كما رأيته آخر ليلة فى الخيامية ، صريعا تحت قدمى والدم يغطى فاه وذقنه وأعلى جلبابه !

ـــ أعوذ بالله •

ـــ وردد آخر كلماته « سأقتلك يا حندس وأنا فى القبر » •

ـــ أعوذ بالله •

ـــ رأيتنى بعد ذلك أجالسه فى مكان غير محدد المعالم ، وكنا نضحك عاليا كما كنا نفعل قبل أن تفرق بيننا البغضاء ، وقال لى معاتبا أنت قتلتنى فقلت له وأنت توعدتنى بالانتقام فضحك طويلا ثم قال انس كل شىء ، أنا نسيت ، وأمس زرت ابنى وقلت له لا تفكر الا فى الحياة ودع الموت والأموات للخالق ، وجعلنا نضحك حتى استيقظت ••

تجمدت ملامح المرأة ، وغشيتها سحابة مظلمة من الذكريات ، فقال حندس بصدر منقبض :

ـــ أنت خائفة !

ـــ أبدا ، ولكنى أتساءل عن تفسير للحلم •

ـــ المهم أنه ذكرنى بأشياء نسيتها •

سألته عن « الأشياء » بهزة من رأسها وهى غارقة فى التفسير فقال :

ـــ ذكرني بما قبل يوم دفن حسونة من أن زوجته رفعت طفله فوق القبر ونذرت ان عاش الطفل أن يكون مقتلي على يديه •

ـــ ولكن زوجة حسونة اختفت منذ دفنه •

ـــ نعم ، ولعل طفلها اليوم في عز الشباب !

قالت ملتمسة الطمأنينة له ولنفسها :

ـــ أنت سيد الحي ، رجاله رجالك ، وربنا الحافظ •

فقال مقطبا :

ـــ أنا لا أبالي بعدو ما دمت أعرفه ، أما الذي لم أعرفه ولم أره ••• !

جلست المرأة على كنبة واجمة فقال :

ـــ الحلم يفسر بعكس ظاهره وهذا يعني أنه يحرض ابنه على الانتقام •

ـــ كيف وهو ميت من خمسة عشر عاما ؟

ـــ كما خاطبني الليلة الماضية !

غالبت المرأة نكدها بابتسامة وقالت :

ـــ حينا معروف لا يختفي فيه غريب ، وأنت سيده ، والله هو الحافظ •

وغادر المعلم هندس منزله يسير وسط هالة من الأتباع ويتقدمه سائق الكرتة • ومال من درب الأعور الى قهوة



أنا لا أبالى بعدو ما دمت أعرفه.

حلمبوحة فجلس على الأريكة التى لا يمسها أحد غيره • وراح المعلم يروى حلمه لأتباعه فضحك طمبورة باستهانة وقال :

ـ أى أم تحرض ابنها عليك يا معلم ؟

ولكن سمكة كان أميل الى الحذر وهو يقول :

ـ حارتنا يقتل بعضها البعض مذ خلق الله الأرض وما عليها •

ـ لكن أحدا لم يسمع عن ابن حسونة ولا أمه •

فقال القهوجى عنارة وكان لحندس بمنزلة الأب :

ـ هذا يعنى أنه يستطيع أن يوجد فى أى وقت وفى أى مكان !

وضحك المعلم حندس معلنا عن استهتاره فقال طمبورة :

ـ نحن حولك كالجدار •

ولكن عنارة قال وهو يرمش بعينيه الدامعتين المرمودتين :

ـ الحلم له معنى ، أنه يذكرك بما نسيت !

وذاع الحلم فى الحى كله • وكثرت التأويلات • وتوثب الرجال للبطش • وجعل حندس يذهب ويجىء وكأنه لا يبالى شيئا • وذات مساء جاء القهوة الشيخ درديرى وهو مقرىء ضرير ، يتعيش من التلاوة فى المقاهى والغرز وتروج سوقه فى المواسم • صافح المعلم ثم تلا الصمدية وقال وهو يتخذ مجلسه بين يديه :

ـ يا معلم ، أن كنت تريد ابن حسونة فأنا أعرفه !

سرعان ما تركزت فيه الأعين وأحدق به الرجال . حاز في ثوان أهمية لم يحظ بعشر عشرها طيلة عمره البالغ الستين . وانتبه اليه حندس لأول مرة في حياته وكأنما يكتشف عينيه المطورتين وجبينه البارز كمشربية . وسأله :

ـ متى عرفته ؟

ـ منذ عام أو أكثر .

ـ كيف ؟

ـ صدفة وأنا أتجول بين المقابر .

ـ أين يقيم ؟

ـ لا أدرى ، ولكنى دعيت للقراءة فى المدفن بالمجاورين فى موسم وهناك عرفته كما عرفت أمه .

ـ ما اسمه ؟

ـ لم ينادى به على مسمع منى .

ـ ولم تر وجهه طبعا !

ـ ولكنى أعرف صوته !

سأله بازدراء :

ـ متى زرت المدفن آخر مرة ؟

ـ فى عيد الفطر الماضى .

ـ ماذا يقولان وهما فى المدفن ؟

ـ يستمعان للتلاوة أو يتبادلان حديثا لا يستحق الذكر .

ـــ ألم يجر الحديث مرة عن الميت ؟

ـــ لم أسمع •

نفخ قائلا :

ـــ لم تقل شيئا يا أعمى !

ولكن عنارة قال بنبرة ذات مغزى :

ـــ قال انه يعرف المدفن •

ولما ذهب الشيخ درديرى قال طمبورة :

ـــ نذهب فى العيد الكبير لنرى بأعيننا ••

ـــ وبعد ذلك ؟

ـــ دعوا الباقى لى !

ـــ أنقتله من غير أن يثبت لنا سوء نيته ؟

ـــ انه لن يزيد الميتين عدا ولن ينقص الأحياء !

وفى موسم العيد تفرق حندس وأعوانه فى البقعة حول المدفن الذى دلهم عليه الشيخ درديرى • وقد ذابوا فى الزحام الذى ناءت به الأرض بمنجى من الريب • وظلت أعينهم تدور حول المدفن الذى تراءى وراء سوره المتهرىء قبر مكشوف ونخلة وحيدة على حين قام بابه الخشبى فى هزال منحوت القشرة مزعزع المفاصل خليقا بأن يقتلع لدى أول لطمة قوية من الهواء • ومر النهار كله دون أن يطرق الباب طارق • وكان الشيخ درديرى يسترزق هنا وهناك • وكلما جاء المدفن وجده

مغلقا فيمضى فى تجواله . واقترب سمكة من الشيخ درديرى وهمس فى أذنه :

ــ كذبت علينا يا أعمى .

فهتف الشيخ :

ــ والله ما كذبت على أحد .

فلكزه بكوعه قائلا :

ــ اسأل الترابى ثم عد الينا .

غاب الشيخ قليلا ثم عاد اليهم ليخبرهم بأن الترابى لا يعرف نبيئا عما عاق الأسرة عن المجىء .

ــ ألم تسأله عن مسكنه ؟

ــ فى باب الربع ولكنه لا يعرف أكثر من ذلك .

وبعد وقفة قصيرة استطرد الشيخ قائلا :

ــ ومن عجب أن الرجل لا يعرف اسمه ولا عمله وختم حديثه عنه بقوله « حد الله بينى وبينه » فلما سألته عما جعله يقول ذلك دفعنى قائلا : « توكل على الله ! » .

رجع الرجال الى درب الأعور بوجوه متجهمة . وضح لهم أن الشاب غامض حقا أو أنه يحيط نفسه بالأسرار ، وأنه خطير يجب أن يحسب له حساب . وتساءل طمبورة :

ــ ان يكن حقا كما يقال عنه فما الذى أقعده حتى الآن عن الانتقام ؟

فقال عنارة بكآبة :

ــ لا يهمنا ذلك بقدر ما يهمنا المستقبل •

ثم وهو يعصر عينيه الملتهبتين :

ــ والأحلام لا ترى عبثا !

عند ذاك قال الشيخ درديرى :

ــ سأسأل عن مسكنه بحجة الاطمئنان عليه •

وغاب الشيخ يوما كاملا ثم رجع ليعلن فى ظفر اهتداءه الى بيت الشاب • قال انه جالسه وعلم بسبب تخلفه عن زيارة قبر أبيه وهو مرض أمه • وأخبرهم بأقصر طريق الى المسكن من ناحية الخلاء اذ لا يدرى بهم أحد • ولكن هل يقتلونه أو يكتفون برؤيته وارهابه ؟ •

وأدرك الأعوان من صمت المعلم أنه يترك لهم الكلمة لغرض لم يعد يخفى عليهم بحكم معاشرته الطويلة ، فقال طمبورة ساخرا :

ــ وجد المسكين مقتولا بيد مجهول !

فاعترض عنارة متسائلا :

ــ ماذا تدرون عن قوته وأعوانه ؟

وتبادلوا نظرات قاسية ، ثم استقر رأيهم على خطة عركوها منذ القدم •

وفى ليلة شديدة الظلام خرج حندس وأعوانه ، وقد استقل هو وخلصاؤه الكرتة موسعين للشيخ درديرى مكانا

عند الأقدام • وأوغلوا فى الصحراء حتى صعدوا ما يشبه التل عند مفترق تتجه طريقه الرئيسية نحو باب الربع ، وعند ذاك قال السائق :

ـ لا يمكن أن تتقدم العربة قيراطا واحدا فى هـذا الخراب •

غادروا الكرتة • وحثهم الشيخ درديرى على البحث عن سبيل ماء قائم على رأس منحدر طويل • وكان قائما على مبعدة أمتار منهم كما لاح شبحه تحت ضوء النجوم • وقال الشيخ :

ـ فى نهاية المنحدر يقع البيت ، وهو فى عزلة اذ تحيط به الخرائب من جهتين ويحدق بالثالثة فناء واسع لوكالة ، توكلوا على الله أما أنا فانى ذاهب •

قال له حندس :

ـ انتظر حتى لا تضل الطريق فى الظلام •

فقال وهو يهم بالذهاب :

ـ الأعمى لا يضل طريقه فى الظلام •

مضوا فى الطريق متمهلين حذرين لوعورته ولكثرة ما يعترضه من أحجار ونفايات • وأحدقت بهم خرائب تفوح منها روائح عطنة وأحيانا نتنة كريهة كأنما تصدر عن جثث فى جوف الليل • وغلظت الظلمة حين بلغوا ممرا مسقوفا بغطاء

لم يتبينوه تقوم على جانبيه المتقاربين جدران مبان غير مرئية فكأنهم فقدوا الأبصار • مات كل شيء في ظلمة الممر حتى أشباحهم ، وند عن أقدامهم ارتطامات كخشخشة زواحف وعن أفواههم زفرات كالفحيح • وعلى بعد سحيق تراءى نور خافت فقال عنارة :

— سنطرق الباب ثم نندفع كالمصيبة ، ولا من سمع ولا من رأى •

فرددت أصوات بهيمية :

— ولا من سمع ولا رأى •

ثم ارتفع صوت حندس قائلا بوحشية :

— وينتهي الحلم !

واذا بصرخة تنطلق من حلقه كالعواء ، واذا بجسمه الضخم يتهاوى على الأرض • صرخوا في صوت واحد « معلم حندس » • وتطايرت زعقات الغضب والويل • وحملقوا في الظلمة المستحيلة ولكنهم لم يروا الا العمى • ونادى سمكة بأعلى صوته السائق أن يحمل اليهم فانوس العربة • وتأوه حندس فساد الصمت ، ثم قال بصوت متقطع محشرج :

— عنارة • قتلت •• بينكم ••

وعلى ضوء الفانوس تبدى المعلم حندس منكفئا على وجهه ، عارى الرأس ، مكشوف الساقين ، ودمه ينساب بطيئا

بين الحصا • قتلهم الغيظ وأذلهم الحنق • لم يشعروا من قبل
بعجز مهين كهذا العجز ، فهم لم يرفعوا نبوتا ولا سلوا خنجرا
ولا قذفوا طوبة وخطف الرجل وهم يبادلونه الحديث • وأين
القاتل ، بل أين منزله ؟ • وجدوا مكان المنزل ضريح ولى فى
خلاء تشتعل فى كوة بجداره شمعتان • ولم يشعر أحد منهم
بالقاتل عند تسلله ولا عند انفلاته : لم يسمع له حس ، ولا عثر
له على أثر •

الصَّدَى

اعتمد على عصاه وانتظر • تلاشى رنين الجرس ولا صوت يجىء من وراء الباب كأن الشقة خالية • بعد لحظة سينفتح الباب عن الوجه القديم • الوجه الذى لم تره منذ عشرين سنة • والزمن لم يطمس صورته القديمة الباكية المتصبرة المتأففة • وهى وان تكن اليوم فى الثمانين فما أكثر المعمرات فى أسرتنا • أما الرجال •• ؟! • الرصاص والمآسى والأعين التى لا تذرف الدمع •

وسمع صوت شبشب يزحف فوق البلاط فتهيأ للمفاجأة وعواقبها ولكن الشراعة فتحت عن وجه ذابل عليل ، أم محمد الخادمة • ارتاح لذلك ونظر اليها من عل وهى تتطلع اليه بحذر ونظر كليل :

ــ من ؟

ــ افتحى يا أم محمد •

ــ من حضرتك ؟

قالتها بلهجة من لا ينتظر زائرا على الاطلاق • بيت مهجور كأن القطيع كله لم ينطلق منه الى الساحات الدامية •

ـــ حقا نسيتنى يا أم محمد ؟

رمشت عيناها طويلا ثم أضاءت بانتباهة مذهلة :

ـــ سيدى عبد الرحيم ! •• يا خبر !!

دخل وهو يحبك عباءته السوداء حول قامته الفارعة ، ثم ترك لها يده تلثمها بحرارة قائلة :

ـــ من يصدق •• من يصدق ••

ثم وهى تضبط أنفاسها :

ـــ سأذهب لأخبر ستى ••

فاعترضها بعصاه قائلا :

ـــ لا •• أين حجرتها ؟

أشارت الى باب فى نهاية الصالة الممتدة الى يمين الداخل وقالت :

ـــ يجب يا ••

فقاطعها بحزم وهو يسير :

ـــ أعرف ما يجب ، أعرف كل شىء ، ولا أريد أن يزعجنى أحد ••

دخل الحجرة متمهلاً وبلا صوت وبقلب يزدرد انفعاله بصلابة معهودة ، ثم أغلق الباب وراءه • وقف فى وسط الحجرة وهو ينظر اليها بتمعن واستطلاع • ورغم غلظته تأثر بعض الشىء • تسربت الى أنفه الأفطس رائحة غريبة وأليفة معا ،

كما تتبلج ذكرى ضائعة ، فدفعته الى أحضان الماضى .: ها هو يعود الى صميم نفسه .. وتربعت المرأة على كنبة قابضة بأصابعها على مسبحة طويلة لامست شرابتها البساط ، ولكنها لم ترفع رأسها اليه وكأنها لم تشعر له بوجود . وقد تلفعت بخمار غامق لم يتضح لونه فى جو الحجرة الغامض المحجوب عن النور بنافذتين محكمتى الاغلاق . انها تتجاهلك بلا شك . لعلها سمعت ما دار من حديث فى الصالة فتأهبت لتجاهلك . لا تعجب لبرودها فكم قاست وكم عانت . وهى على أى حال أم المآسى فكيف تخلو من روح العنف ! .. وماذا توقعت عندما اضطرتك الحال الى العودة ؟ . وابتسم ليلين من قسوة وجهه الداكن كجلد مدبوغ ولكنها لم تأبه له ألبتة . وراحت تسبح بصوت مهموس ثم تثاءبت ! . اختفت الابتسامة من وجهه . انها أشد مما تصور . انها أقسى من تاريخ الأسرة الدامى . لكننى عنيد أيضا .. لم أقطع الوادى لأسلم بهزيمة عاجلة . توقعت سخطا ولعنا وبكاء ومرارة ولكن ليس الصمت والتجاهل . تلك صدمة أجلت فكرة تقبيل اليد الى حين . والانسحاب أبعد ما يكون عن الخاطر . لم يبق اذن الا طريق وسط . قال بهدوء :

ــ نهارك سعيد يا أمى .

واقترب خطوتين مادا يده . ولكنها لم تشعر له بوجود .

صدمة أشد من الأولى • الماضى بكل مآسيه لن يخفف من قسوة اللطمة • حق أنك آخر من يعجب لقسوة ما • وعليك أن تؤدى حساب عشرين عاما من المقت • وهى كما ترى لا تبرأ من صفة الصحز • وابتسم ابتسامة مفجعة وهو يتقهقر نحو الفراش ثم جلس على حافته • وضع طربوشه على الوسادة واعتمد براحته على العصا • ما دمت قد رجعت الى مهدك فلا بأس من الجلوس على الفراش •

ـــ الحق انى لم أتوقع مقابلة لطيفة ولكنى لم أتصور هذه القدرة على الاعدام !

وضحك ضحكة قصيرة ميتة وقال :

ـــ نحن أسرة الأنياب والأظافر ولكنى مشوق الى معرفة النهاية •

رفعت رأسها قليلا ربما لتريحه ثم عادت الى الانطواء على المسبحة فى عالم لا يشاركها فيه أحد •

ـــ من بدرى فلعل حضورى خطأ من أساسه ولكنى مصمم على ألا أندم عليه •

لا كلمة •• لا حركة •• لا اهتمام •

ـــ أتتوقعين أن أعتذر ؟ •• أن أعترف بخطأ •• أن أعلن الندم ؟ •• أنه تعرفيننا خيرا مما نعرف أنفسنا ، والكلام لم

يعد يجدى ، وكلانا قد تغير كثيرا ولكن صحتك ما زالت بحمد الله جيدة ، لعلها أفضل من صحتى •

العبارة الأخيرة غير قابلة للتجاهل الى ما لا نهاية • سوف تدب حركة • أجل ستنفجر أولا فى غضب وتصب اللعنات ثم تلين رويدا وأخيرا ستسمع هذه الجدران دعاء !

ــ أعلم ماذا يقول صمتك ، جاء اللص ، جاء المجرم ، جاء أخيرا ، بالله خبرينى هل تطلبت حياتك هنا مالا أكثر مما لديك ؟

وركبته رغبة يائسة فى المزاح فتساءل :

ــ هل أردت مالا لتجربى حظك فى الزواج من جديد ؟

وضحك عاليا • لكنه ضحك وحده • وحده • لله هذه القدرة الجهنمية على الاعدام •

ــ ما مضى قد مضى ، الدم والأرواح مضت ، لسنا أول مجموعة دموية ولن نكون آخرها ، وكم هلك لى من أعزة ، وقطنت فى صدرى رصاصة الى الأبد ، ولا تعدى بقايا الطعنات فى الفخذ والبطن والرأس ، وكنت تبكين وتمزقين شعرك وكنا وما زلنا نعانى حياتنا ، ما الفائدة ؟ ، ما مضى قد مضى ••

ألم تعاهد نفسك على تجنب الذكريات ؟ • ولكن كيف ؟ ، انها مستمرة فى قتلك • وأنت لم تقطع الوادى من أقصاه لتجلس أمام تمثال من حجر •



الماضى بكل مآسيه لن يخفف من قســوة اللطمة

ـــ اذن تودين أن أذهب ! ؛ لا أعجب كثيرا ولكنى أتيت ، وهذا جزء لا يتجزأ من الحكاية ، ألم تغضبى بما فيه الكفاية ؟ ، لعنت الأبناء حتى جف صوتك ، هالك أن يخرج من بطنك هذا العدد العديد من الأعداء ، ولكنها بطنـــك على أى حال ، وخبرنى بالله كيف مات أبى ؟ ، وأعمامى ؟ ، وقيل لى لماذا تذهب بعدما كان ولكن لا أحد يعلم بسرى سواى ، وأنا أومن بالغيب ايمانى بالدم ؛ والوقت قد فات فيما بدا لهم ولكنى رأيت رأيا آخر ، غير أنى أود أن أعلم حتـــام تتعـــلقين بالصمت ؟ ! .

آه .. فلتعجب بها بقدر ما تحنق عليها . ما أصدقها لنا من أم . لكنك تمثل عناد من تربص يوما فى حقل الذرة ثمانى ساعات دون حركة . وكم غنيت فوق أشلاء الجثث . وأيدى الاخوة التى قطعتها . وقولك الساخر عن ابنى عميلك فى البلد « يتحابان رغم أنهما أخوان ! » .

ـــ لا تطردينى دون كلمة ؛ اسألينى على الأقل عما جاء بى ، الغبار لم بعد يطاق والشوك أدمى الأقدام ، وأعترف بأن نفسى نازعتنى الى مأوى منسى لأسترد فيه أنفاسى ، شعور طبيعى بالحاجة الى الظل بعد احتراق لعين ، وسمعت ان صدقا وان كذبا أشياء وأشياء عن غرابة أطوار الأم ، أى أم كما قالوا ،

ومع أن آخر صورة احتفظت بها منك كانت عابسة باكية لاعنة الا أنى غامرت بالتجربة ..

يا رب السماوات ! .. ها هى تتثاءب مرة أخرى .. من الضجر لا من التعب . ولكن طلاء القسوة سيتقشر عاجلا أو آجلا ثم يتساقط . والأحزان قد أنضبت فى نفسك موارد سخية ولكنى أجلس أمامك بشخصى وشهادة ستين عاما من البنوة . وان تكن بنوة مفلسة جدباء .

ــ أصغى الى : أنا لا أسافر عبثا ، هكذا خلقت ، قيل لى لماذا تذهب بعد ما كان ولكن لا أحد يعلم بسر ذلك سواى ، ومذ قدمت وأنا أتكلم وأنت تقتلين ، سأذهب أقسى مما جئت ، والساقية تدور ولا تحمل من باطن الأرض الا العلقم ، لم يجىء الأبناء خيرا منا ، هيهات أن أعترض .. اليوم يقطبون ويتبادلون نظرات ممتعضة ، وغدا ينطلق الرصاص ، ها أنا أرى المستقبل بعين الماضى الدامية ، واليوم تجمعهم صورة عائلية ، كما جمعتنا صورة يوما ما ، ولكن ماذا عن الغد ؟ ، وكان أن ضجرت ، ضجرت حتى الموت .. ولكننا نكره الكلمات الطيبة ولا نصدقها ، واذن فلتمض القافلة مثيرة للغبار ولرشاش الدم ، ولكن تمادى بى الضجر حتى وقعت ، وبعد عشرين عاما من العقوق والنسيان ذكرنى الضجر بك ! ، ولكن ماذا أريد ؟ ، أن أرجع اليك ؟ ، ولكن ماذا وراء ذلك ؟ ، ونحن

نخجل من العواطف ونتباهى بالكلمات ، غير أنى أصبحت ذات يوم مقوس الظهر أزحف على أربع ، وكتمت الألم خشية الشماتة ، لا شيء سوى الشماتة ، وما جاء الظهر حتى أعلمنى الطبيب بأنى مريض بكل معنى الكلمة ، ولست أصدق الأطباء ولكنى لم أجد مفرا من تصديق الألم ، وخصوصا وأنه لا يؤلمنى الا الألم الأليم ، وانزويت فى حجرتى أياما ، وأحدقت بى نذر الشقاق بين الأبناء حتى رأيت صفحة المستقبل دامية كالصفحة المنطوية ، وتجهمتنى الدنيا ، وأبيت فى الوقت نفسه تذكر كلماتك القديمة ، ولكنى رأيت حلما ..

آه هل تستسلم لليأس ؟ . وما هذا الألم الذى يدب فى أعماقك أهو نذير نوبة جديدة ؟ . اذن ماذا تفعل العقاقير ولم هى ليست حاسمة كالرصاص والفأس ؟ ، وأنت أيتها العجوز ماذا بالله يمكن أن يحركك ؟ . أأقول انك أقسى منا جميعا ؟ .. لا تضطرينى الى هزك حتى تفيقى . انى اذا صرخت تقوضت الجدران !

ــ حلمت حلما فلماذا لا تسألييننى عما رأيت ؟ ، هل فقدت ولعك بالأحلام وتأويلها ؟ ، اعذرينى اذا اعتقدت بأننا انما ورثنا القسوة عنك ، عنك أنت أكثر مما ورثناها عن أبى أو أى جد غابر ، لا أحد يمكنه المحافظة على بروده كما تفعلين ، وجهك لا يفصح عن شيء ، أنت لا تتجاهلين وجودى واكنك

تجهلينه ، تجهلينه بكل معنى الـــكلمة ، أنت لا تسمـــعينني ولا ترينني من أين لك هذه القوة كلها ؟ ..

وانتفض واقفا فى انفعال . ذهب مرة وجاء ثم وقف قبالتها معتمدا على عصاه بيمناه متجهم الوجه :

ـــ أهذه طريقتك فى العقاب ، لا شك أنك تخيلت هذا اللقاء وتمنيت وقوعه وانتظرته طويلا ، قلت سيجىء يوما ، سيجىء اذا ألمت به كارثة أو صرعه مرض ، سيذكر عند ذاك أمه المنسية ويهرع اليها سائلا العفو والبركة ، وعند ذاك أجد فرصتى للانتقام ، سيكفر عن السرقة والنهب والاعتداء والقتل ، عن دموعى التى لم يجففها أحد ، عن استغاثاتى التى قوبلت بالنهر ، عن حبسى الطويل فى هذه الغربة ، هذه هى الحقيقة ، وانك لأمنا حقا ، فأسلوبك هو أسلوبنا وقسوتك هى قسوتنا ، وفى بعض أويقات الارهاق والملل كنت أتساءل عما شكلنا بهذه الصورة الوحشية التى لا تعرفها الكلاب ولا الحمير ولا البقر ولا الجاموس ، وها هى الحقيقة تتكشف لى ، ان السيل الذميم المنصهر ينحدر منك يا امرأة !

وضرب أرض الحجرة بعصاه مرتين حتى طقطق زجاج النافذة . واذا بأم محمد تنقر على الباب المغلق مستطلعة مستأذنة فصـــاح بها غاضـــبا « اذهبى » ثم التفت الى المرأة التى واظبت على التسبيح فى هدوء وقال :

ـــ كفى ، كفى عن التسبيح ، نحن لا نعرف الله ، ولا نذكره الا عند شراء النقل أو صنع انكعك ، الحق أننا لا نعرف الله ولا نريد أن نعرفه ، والحلم الذى رأيت كان حلما كاذبا ، وما كان ينبغى أن أحلم ، أو أن أكترث للحلم اذا حلمت : وما كان ينبغى أن أمرض ، على الذين يعيشون للرصاص والدم ألا يمرضوا أو يحلموا ، وعليهم ألا يبحثوا عن راحة الا فى الموت ، عليهم أن ينتحروا قبل أن يقتلوا ، فأى شيطان دفعنى الى زيارتك يا امرأة ؟

ولما لم تخرج عن تجاهلها الرهيب قطب فى عزم ، وتقدم منها خطوتين ، ثم مد يده فأمسك بيدها • ارتفع رأسها متراجعا فى دهشة • تركت المسبحة فى حجرها وأراحت يدها الأخرى على يده • تحسست ظهرها الجاف المعروق ومنابت الشعر الأبيض عند أصول الأصابع • ارتسم الفزع فى وجهها ثم ندت عنها صرخة وصاحت :

ـــ من ؟ •• من ؟ •• أم محمد !

وسرعان ما ألمت بها نوبة سعال ، ثم عادت تصيح بصوت مخنوق شرقا :

ـــ أم محمد ! •• أم •• محمد ••

انفتح الباب فى دفعة متمردة وهرولت المرأة اليها فى اللحظة التى أخذ هو فيها يتراجع فى وجوم شديد • احتوت

الخادم يد سيدتها المرتعشة بين راحتيها فى حنو ثم راحت تربت ظهرها النحيل فى اشفاق . قال الرجل كالمعتذر :

ــ لا أدرى ماذا أفزعها !

فقالت الخادم بصوت خائف :

ــ أردت أن أقول لك فلم تسمع لى يا سيدى ثم منعتنى من الدخول !

لبس طربوشه وتناول عصاه وهو يقول :

ــ ماذا أفزعها ؟ .. كنت طوال الوقت أتودد اليها ، وكان أملى كبير فى أن تلين اذا رأتنى بين يديها ..

أرخت الخادم جفونها وهى تقول بحسرة :

ــ يا سيدى انها لا ترى !

اتسعت عيناه الغامضتان فى ذهول وراح يتفحص أمه وهو يقول :

ــ تعنين ..

ــ نعم يا سيدى انها لا ترى ..

وحل بالحجرة خرس مقدار دقيقتين ثم تمتم :

ــ لم أتصور ذلك ، النور خافت كما ترين ..

ثم بنبرة مرة وكأنه يحادث نفسه :

ــ ولكنى حدثتها طويلا فتجاهلتنى على نحو أليم ..

قالت الخادم بصوت منكسر :

ـ يا سيدى انها لا تسمع !

بذهول أشد :

ـ تعنين .. ؟

ـ نعم يا سيدى ، انها لا تسمع ..

لطمه الفهم لطمة مفزعة أدارت رأسه :

ـ كلية ؟

ـ نعم ..

ـ أاذا صرخت ..

ـ لا فائدة يا سيدى .

ـ لا بصر ولا سمع ؟

ـ لا بصر ولا سمع .

ـ يا ألطاف الله متى حدث ذلك ؟

ـ من أعوام يا سيدى ، بدأ أمر الله بالعينين ، ثم تلاه السمع ، ولم ينفع طب الأطباء .

تردد مليا ثم تساءل فى حرج واضح :

ـ ألم تكن هناك طريقة للاتصال بى ؟

ـ أردت ذلك عقب اصابة العينين ولكنها منعتنى ، منعتنى بشدة ورجاء معا ، فاحترمت رغبتها الى النهاية ..

لم يكن الموقف كما تصورت ولكنه فى الحقيقة أفظع .
وأنت شريك فى الجناية لا مفر . جئت تتخفف من أثقــالك
فضاعفتها أضعافا مضاعفة . وها هى أنفاسها تتردد على يدك
ولكنها أبعد من نجم . كالموت غير أنه ينضح بالعذاب . وها هو
الصمت وها هو السد . وعليــك أن تؤول حلمك بنفسك
أو سوف يبقى الحلم بلا تأويل ..


البخلاء

لتكن معركة حامية وحشية ولتشف غليك عشرين عاما من التصبر والتربص والانتظار • قدح وجه الرجل شررا وهو يحيط به الأعوان ، وامتدت جموعهم خلفه قابضين على العصى ذوات العقد ، كل عقدة تنذر بحفر ثغرة فى العظـام ، وقد انخرط فى أحضان الموكب حملة المقاطف المملوءة أحجارا وزلطا • تقدم الرجال فى طريق الجبل المقفر بعزائم متوثبة للقتال ، جاءك الويل يا شرداحة • وبين آونة وأخرى يتطلع زبال أو ترابى الى الموكب الغريب مركزا بصره على الرجل الذى يحتل القلب فى استطلاع ودهشة وانكار • يتساءلون عن الفتوة الذى لم يره من قبل أحد ، سوف تعرفونه وتحفظونه عن ظهر قلب يا ذباب الخليقة • وألقت الشمس المائلة على اللاثات المزركشة أشعة حارة ودار هواء خماسينى مجنون فلفح الوجوه ونفخ فى الجو اكفهرارا ومقتا • ومال أحد الأعوان الى أذن الرجل وسأله :

ـــ معلم شرشارة ، هل تقع شرداحة على طريق الجبل ؟

ـــ كلا ، علينا أن نخترق اليها حى الجوالة •

ــ سبطير خبرنا اليها فيستعد عدوك •

عبس وجه شرشارة وهو يقول :

ــ عز المطلوب ، فالغدر يحقق النصر ولكنه لا يشفى الغليل •

غليل عشرين عاما فى المنفى • بعيدا عن القاهرة الساهرة وفى مجاهل الميناء بالاسكندرية • ولا أمل لك فى الحياة الا الانتقام • الأكل والشرب والنقود والنساء والسماء والأرض غرقت فى عماء ، وانحصر الاحساس فى التحفز الأليم ، ولا فكرة تخطر الا عن الانتقام • لا حب ولا استقرار ولا ابقاء على ثروة ، ضاع كل شىء فى الاستعداد لليوم الرهيب • هكذا ذابت زهرة العمر فى أتون الحنق والحقد والألم • لم تهنأ بتفوقك المتمهل الأكيد بين عمال الميناء • لم تجن ثمرة حقيقية من انتصارك على الجعافرة فى معارك كوم الدكة • ما كان أسهل أن تعيش فتوة مهابا وأن تتخذ من الاسكندرية موطنا يدوى تحت سمائه اسم شرشارة ولكن عينك الدامية لم تر من الوجود الا شرداحة بطريقها الضـيقة وحاراتها المتفـرعة الصاعدة وفتوتها الجبار البغيض لهلوبة • الويل •• الويل •

انتهى طريق الجبل المقفر عند البوابة فمرق منها الموكب الى حى الجوالة المزحم • وصاح شرشارة بلهجة آمرة حادة كضرب الفأس فى الحجر :

ـ لا كلام مع أحد ولا جواب .

أوسع المارة للموكب ، واشرأبت اليه الأعناق من الحوانيت والمشربيات ، وتطلعوا الى القائد الجديد ، ثم شاع الاضطراب والخوف . وقال صاحبه محذراً :

ـ سيظنون أننا نقصدهم بسوء !

قلب شرشارة عينيه فى الوجوه الشاحبة وقال بصوت مسموع :

ـ يا رجال ، لكم منا السلام ..

انفرجت الأسارير وارتفعت الأصوات بالتحيات ، واذا به يقول مخاطبا القوم وهو يلحظ صاحبه بنظرة ذات معنى :

ـ نحن قاصدون شرداحة !

ولوح بعصاه المخيفة وهو يتقدم فى طريقه . ما زالوا يتطلعون اليك باستغراب . كأنك لم تولد فى هذا الحى . فى صميم شرداحة . ولكن لا ذكر يبقى الا للقتلة والمجرمين . شاب فى العشرين ، عامل فى السرجة ، هوايته لعب البلى تحت شجرة التوت . يتيم حتى مرقده لا يجده الا فى السرجة صدقة من عم زهرة صاحبها . وأول مرة حمل الزيت الحار الى بيت لهلوبة صفعه هذا على قفاه ، تلك كانت تحيته . وزينب ما كان أجملها . لولا جبار شرداحة لبقيت زوجتك منذ عشرين عاما . كان بوسعه أن يطلب يدها من قبل أن تطلبها أنت ولكنها



ما زالو يتطلعون اليك باستغراب ، كأنك لم تولد فى هذا الحى،

لم تحلُ فى عينيه الا ليلة الزفة • وتحطمت الكلوبات وفر المطرب وتكسرت آلات الطــرب • وخطفت أنت كأنك وعاء أو قطعة من أثاث • لم تكن ضعيفا ولا جبانا ولكن المقاومة كانت فوق طاقتك • ورمى بك تحت قدميه وأحدقت بك عشرات الأقدام ••

وضحك ضحكة كريهة وقال متهكما :

ــ أهلا بعويس الزيت الحار !

تمزق الجلباب الجديد وفقدت اللاثة وسرقت بقية تحويش العمر ، وقلت :

ــ أنا من شبرداحة يا معلم ، كلنا رجالك وفى حماك ••

فصفعه على قفاه معلنا عطفه وخاطب رجاله قائلا فى سخرية :

ــ أى معاملة يا أنذال ؟ !

ــ أنا خدامك يا معلم ولكن دعنى أذهب ••

ــ العروس فى انتظارك ؟

ــ نعم يا سيد الحى ، وأريد نقودى أما الجلباب فالعوض على الله ••

قبض على قصّتك وجذبك منها وقال بلهجة جديدة جادة ومرعبة :

ــ شرشارة •• !

ـــ أمرك يا معلم ؟

ـــ طلّق !

ـــ ماذا ؟

ـــ أقول لك طلّق ، طلق عروسك ، الآن ٠٠

ـــ لكن ٠٠٠

ـــ هى جميلة ولكن الحياة أجمل !

ـــ كتبت كتابها العصر ٠

ـــ وتكتب طلاقها فى الليل وخير البر عاجله !

ندت تأوهات يائسة ٠ وركله ركلة قاسية ٠ وفى ثوان جرد من ثيابه المزقة ٠ انطرح أرضا على أثر ضربة فى الرقبة ٠ وانهال عليه بخيزرانة حتى أغمى عليه ٠ وغرز وجهه فى نقرة مليئة ببول فرس ٠ وعاد يقول :

ـــ طلق !

بكى من الألم والقهر والذل ولكنه لم يعترض بكلمة ٠ وقال الآخر بلهجة عطف ساخرة :

ـــ لن يطالبك أحد بمؤخر الصداق ٠

فهزه رجل من الأعوان بعنف قائلا :

ـــ احمد ربنا واشكر سيدك !

الألم والهوان والعروس الضـــائعة ٠ وها هى روائح العطارة بالجوالة ترجعك الى الماضى أكثر مما أرجعتك العودة

الحقيقية • الملاعب القديمة ووجه زينب الذى أحببته مذ كانت فى العاشرة • وطوال العشرين عاما لم يتحرك بغير الحقد قلبك • قبل ذلك لم يعرف الا الحب واللهو • وبعد قليل فلن أتحسر على ضياع ما ضاع من عمر •• عندما أطرحك يا لهلوبة تحت قدمى وأقول لك « طلّق » •• بذلك أسترد عشرين مفقودة فى الجحيم • وأتعزى عن مالى الذى بعثرته على هذه العصابة • المال الذى دبرته بالشقاء والجهد والسرقة والنهب والتعرض للمهالك •

ولما لاح عن بعد قريب القبو المفضى الى شرداحة التفت الى رجاله قائلا :

ــ احملوا على الأعوان ودعوا لى الرجل ولا تمسوا بسوء أحدا من غير هؤلاء ••

لم يداخله شك فى أن نبأ غزوته قد سبقه الى شرداحة ، وأنه عما قليل سيقف أمام لهلوبة وجها لوجه • ولم يعد يفصله عن هدفه الا قبو قصير • تقدمهم فى حذر ولكنه لم يصادف داخل القبو أحدا • واندفعوا مرة واحدة وهم يشدون على عصيهم ويطلقون صرخات مرعبة ولكنهم وجــدوا الطــريق خاليا • لاذ الناس بالبيوت والحوانيت • وامتد طريق شرداحة مقفرا حتى الخلاء الذى يحده من ناحية الصحراء • وهمس صاحبه فى أذنه :

ــ مكيدة ! .. مكيدة وسيدى أبو العباس !

فقال شرشرارة باستغراب :

ــ لهلوبة لا يستعمل المكائد !

وبأعلى صوته صاح :

ــ لهلوبة .. اظهر يا جبان !

ولكن لم يجبه أحد ولم يخرج الى الطريق أحد . نظر فيما أمامه بترقب وذهول وهو يتلقى تيارا من الغبار الخانق الحار . من يفرغ شحنة عشرين عاما من الغضب والحقد ؟! . ورأى باب السرجة القصير المقوس المغلق فمضى اليه فى حذر ، وطرقه بعصا حتى جاءه صوت مرتعش النبرة وهو يهتف فى ضراعة :

ــ الأمان !

فصاح بظفر :

ــ عم زهرة ! تعال ولك الأمان ..

ظهر وجه العجوز من كوة فى الجدار أعلى من الباب، ورمى ببصر زائغ كليل .

ــ لا تخف ، لا أحد يريد لك السوء ، ألم تتذكرنى يا رجل ؟ !

نظر العجوز اليه طويلا ثم تساءل فى حيرة :

ــ من أنت يحفظك الله ؟

ـــ أنسيت صبيك شرشارة ؟

اتسعت العينان الغائمتان ثم صاح :

ـــ شرشارة ؟ ! .. وكتاب الله هو شرشارة ولا أحـــد غيره !

وسرعان ما فتح الباب وهرع اليه فاتحا ذراعيه فى ترحيب ظاهر وخوف باطن فتعانقا ، وصبر شرشارة حتى انتهى ثم سأله :

ـــ أين لهلوبة ؟ .. ما له لم يجىء للدفاع عن حيته ؟

ـــ لهلوبة !

ـــ أين فتوتكم الجبان ؟

شهق العجوز رافعا رأسه عن رقبة نحيلة معروقة ثم قال :

ـــ ألم تدر يا بنى ؟ .. لهلوبة مات من زمان !

صرخ شرشارة من أعماق صدره وهـــو يترنح تحت ضربة مجهولة :

ـــ لا !

ـــ هى الحقيقة يا بنى ..

بصوت أقوى وأفظع من الأول :

ـــ لا .. لا يا مخرف !

قال العجوز وهو يتراجع خطوة فى خوف :

ــ لكنه مات وشبع موتا ••

تراخت ذراعاه وتهدمت قامته فعاد العجوز يقول :

ــ منذ خمسة أعوام أو أكثر ••

آه •• ما بال جميع الكائنات تختفى ولا يبقى الا الغبار •

ــ صدقنى لقد مات ، دعى الى وليمة فى بيت أخته فأكل الكسكسى ، ثم تسمم هو وكثيرون من أعوانه ، ولم ينج منهم أحد •

آه •• انه يتنفس بصعوبة كأن الهواء استحال طوبا • وهو يغوص فى أعماق الأرض ولا يدرى ماذا بقى منه فوق سطحها • وحدج زهرة بنظرة ثقيلة خابية وتمتم :

ــ اذن مات لهلوبة ؟

ــ وتفرقت البقية من أعوانه اذ سهل على الناس طردهم ••

ــ لم يبق منهم أحد ؟

ــ ولا واحد والحمد لله •

وصاح فجأة بصوت كالرعد :

ــ لهلوبة •• يا جبان •• لماذا مت يا جبان !

انذعر العجوز من عنف صوته فتوسل اليه قائلا :

ــ هون عليك ووحد الله •

هم بالتحول الى أصحابه فى حركة متهاوية ولكنه توقف فى فتور وعاد يسأل :

ــ وماذا تعرف عن زينب ؟

تساءل العجوز فى حيرة :

ــ زينب ؟ !

ــ يا عجوز أنسيت العروس التى أجبرنى على تطليقها ليلة دخلتها ؟

ــ آه .. نعم .. هى اليوم بياعة بيض فى عطفة الجحش !

نظر الى رجاله فى انكسار وهزيمة . العصابة التى استنفدت عمره وماله وصبره . ها هو العمى يهبها للعدم . وقال بضجر :

ــ انتظرونى عند الجبل .

تجمد نظره تجاههم وهم يختفون داخل القبو رجلا فى اثر رجل . هل سيلحق بهم ؟ . متى يلحق بهم ولماذا ؟ ! . وهل يرجع من طريق الجوالة أو من طريق الخلاء ؟ . ولكن زينب . أجل زينب . من أجلها احترقت عشرون عاما من العمر . أمن أجلها حقا ؟ ! . لن تصل اليها فوق جبار منهزم كما رسمت . مات ولا جدوى من نبش القبور ، ما أفظع الفراغ . وها هى فى دكانها . هى هى دون غيرها ، من كان يتصور لقاء كهذا اللقاء الفاتر الغامض الخجلان ! . وجلس على مقعد فى قهوة صغيرة فى حجم زنزانة وراح يرقب الدكان الغاص بالزبائن .

ها هي امرأة غريبة ممتلئة لحما وخبرة وقد أنضجت الأعوام قسماتها الساذجة • ملتفة بالسواد من الرأس حتى القدمين ولكن وجهها متشبث بقسط وافر من الوسامة • وهي تساوم وتناضل ، وتلاطف وتخاصم ، كامرأة سوق لا يمكن أن يستهان بها • ها هي ان أردت ، وبلا معركة • بلا كرامة أيضا • فاتك الى الأبد أن تقف فوق صدر لهلوبة وأن تأمره بالطلاق ، ما أفظع الفراغ • ولم يحول عينيه عنها لحظة واحدة • وانهمرت عليه الذكريات في غرابة وحزن وحيرة قاتلة • ولا فكرة عنده عما سيفعل • كم آمن بأنها كل شيء في الحياة ولكن أين هي ؟ ! •

وهبط المغيب كآخر العمر • وذهب الزبائن تباعا • وجلست في النهاية على مقعد قصير من القش المجدول وراحت تدخن سيجارة • قرر أن يلقي بنفسه بين يديها هربا من حيرته • وقف حيالها وهو يقول :

ــ مساء الخير يا معلمة •

فرفعت اليه عينين مكحولتين مستطلعة • ولم تعرفه فتابعت دخان سيجارتها متمتمة :

ــ طلباتك ؟

ــ لا طلب لي •

أعادت النظر بشيء من الاهتمام المفاجيء فتلاقيا في نظرة ثابتة • ارتفع حاجباها وانحرف جانب فيها في شبه ابتسامة •

ـــ هو أنا !

ـــ شرشارة !

ـــ هو نفسه ولكن بعد عشرين سنة !

ـــ عمر طويل •

ـــ كالمرض •

ـــ حمدا لله على سلامتك ، أين كنت ؟

ـــ في بلاد الله •

ـــ عمل وأهل وأبناء ؟

ـــ لا شيء •

ـــ وأخيرا رجعت الى شرداحة •

ـــ عودة الخيبة •

التمعت في عينيها نظرة ارتياب وتساؤل فقال بغضب :

ـــ سبقني الموت !

تمتمت في غير ما ارتياح :

ـــ كل شيء مضى وانقضى •

ـــ دفن معه الأمل •

ـــ كل شيء مضى وانقضى •

وتبادلا نظرة طويلة ، ثم سألها :

ـــ وكيف حالك ؟

أشارت الى مقاطف البيض وقالت :

ــ كما ترى ، معدن !

بعد تردد :

ــ ألم .. ألم تتزوجى ؟

ــ كبر الأولاد والبنات .

جواب لا يعنى شيئا . واعتذار واه كأنه مصيدة . ما جدوى العودة قبل أن تسترد الكرامة الضائعة ؟ . ألا ما أفظع الفراغ . وأشارت الى مقعد خال فى زاوية الدكان وقالت :

ــ تفضل .

نغمة ناعمة كأيام زمان . ولكن لم يبق الا الغبار . قال :

ــ فى فرصة أخرى .

وتردد فى حيرة معذبة ثم صافحها وذهب . لن تتكرر الفرصة . هكذا وجدت نفسك قبل عشرين سنة . ولكن الأمل لم يكن قد قُبر .. وكره فكرة الذهاب الى الجبل من طريق الجوالة . كره أن يرى الناس أو أن يروه . وكان ثمة طريق الخلاء فمضى نحو الخلاء .

البرلمان

ممها يكن من أمر فقد اقترن بأطيب الأوقات وجهك • وأنت معتمد على الطاولة الرخاميـــة البيضاء بكوع يسراك وراحة يمناك ، تنظر وتنتظر ، ودائما تبتسم ، وبين حين وحين تتناول منشفة صفراء كبيرة فتمسح السطح برشاقة ثم تعود الى موقفك • ووراء ظهرك على رفوف أربعة صفت زجاجات الخمور من كل صنف ، مستكنة فى خمول ، ناضحة بسوائل ذهبية وبنية وحمراء ، ولا مشابهة أو مقـــاربة بين ظاهرها الأنيس الوديع وخميرها العامر بالقوى الغامضـــة الملهمـــة المفجرة ، ورأسك المستدير الكبير ، وشعرك الأسود المفروق من الوسط ، وحاجباك الغزيران المتباعدان ، وشاربك الكث المتعرج كقوس ، وذقنك العريض القوى ، وعيناك الواسعتان الزرقاوان اللامعتان ، وأنفك الأقنى ، كل أولئك آيات منظر لا يمكن أن ينسى • أنت حقا ملك قهوة وبار افريقيا •

وفى بعض الأوقات كنا نغادر مكاتبنا بالوزارة فننتسلل الى « افريقيا » لنشرب فنجالا من القهوة • ولم يكن من النادر أن يدور حديثنا عنك وأنت لا تدرى • ومرة تساءلت بين اخوة من الموظفين :

ـــ كيف يختارون البارمان ؟

فأجاب صديق من أهل الخبرة وهو يرمقك باعجاب :

ـــ لعله فى الأصل جرسون ولكنه يُنتقى بمنتهى الدقة .

وقال ثان :

ـــ انهم يتقاضون مرتبات خيالية ..

ـــ وله دراية مذهلة بالنفس البشرية ..

ـــ وفى المعلومات العامة أستاذ بكل معنى الكلمة .

ـــ ألا ترى كيف يحادث وكيف يضاحك وكيف يناقش ؟

ـــ ولذلك فالشريب العتيق هو زبون البارمان قبل كل شىء ..

ـــ هو كل شىء ، وكل ما يجىء من ناحيته طريف ، حتى اسمه ، فاسيليادس .. فاسيليادس .. أصغ الى موقعه من الأذن !

فنظرت اليه باكبار ، واندفعت الى الاعجاب به اندفاعا لا يصدر عادة الا عن يافع الشباب . وكانت مودته قيمة أعتز بها حقا ، ويستخفنى الفرح كلما استقبلنى بابتسامة متفتحة مشرقة تنجاب معها هموم القلب . وفى مساء العطلة الأسبوعية كان يدعونى اليه الشباب قبل السهرة ، أى سهرة .

وما أكاد أجلس على المقعد الطويل حتى تمتد يده الى زجاجة الديوارس فيصب لى منها فى الكأس المضلعة ، ويتابعنى وأنا أشرب ، ثم يسأل باهتمام :

ـــ أين تذهب هذا المساء ؟

فأجيبه بما أنوى الذهاب اليه من سينما أو مسرح أو صالة غناء ، فيقول :

ـــ كل هذا جميل فى عهد الشباب .

فأقول ضاحكا :

ـــ شباب .. شباب .. لم التغنى الدائم بالشباب ؟ .. أليس لكل فترة من العمر قيمتها ؟

ـــ انك تتطاول على الشباب لأنك شاب ، بالله انتبه الى قيمة الكنز الذى فى قلبك ..

ـــ لا تبالغ يا فاسيليادس ، الحياة ليست دماء وساعات ودقائق ..

ـــ اذن ما هى الحياة ؟

ـــ هى المال قبل كل شىء يا فاسيليادس .

ـــ المال مهم جدا ، ولكن الشباب أهم ، ثم ان مظهرك ..

فقاطعته :

ـــ دعك من مظهرى ، ماذا تعرف عن موظف صغير بتلك

الوزارة المشئومة التى ترى مدخلها من موقفك وراء البار ؟ ••
الرغائب كثيرة واليد قصيرة فلا تحدثنى عن الشباب ••

ــ أتدرى كيف كان صاحب هذه القهوة عندما هاجر الى مصر ؟

ــ جاء فقيرا معدما ثم شق سبيله فى عالم غير عالم الوزارة والوظائف . جميع الترقيات والعلاوات موقوفة لأجل غير مسمى فماذا بقى للشباب ؟

ــ الموقوف اليوم يسير غدا ، ولا يبقى شىء على حاله ، •• خذ ••

ويملأ الكأس من جديد فسرعان ما أصدقه وأستحلى منطقه ، ثم أودعه بقلب ممتن ودود •

وفى صباح يوم عيد وأنا راجع من القرافة وجدت فى البيت بطاقة معايدة من فاسيليادس فطرت بها فرحا • وجلست حين المساء أمامه وأنا أقول :

ــ هذا يوم الشراب والورد والأفكار الطيبة ••

فملأ الكأس وأهدانى قرنفلة وابتسامة • وحلا كل شىء وطاب حتى نسيت فاسيليادس نفسه وجعلت أردد بصـــوت منخفض :

ــ كتمت الهوى حتى أضر بك الكتم

ولامــك أقــوام ولومهم ظلم

واذا به يتساءل :

ــ شعر ؟

فقلت وأنا أضحك من غفلتى :

ــ نعم ٠

ــ خبرنى عن معناه ؟

فرحت أشرحه له كلمة كلمة وهو يتابعنى باسما ، ثم قال :

ــ جميل حقا ، ولكن أأنت عاشق أم شاعر ؟

فقلت بنبرة اعتراف :

ــ عاشق !

ــ جميل حقا ولكن لماذا الكتم والماذا الظلم ؟

ــ هكذا الحب فى بلادنا ٠

ــ الحب أن تتكلم وأن تحب وأن تمرح مع من تحب ٠٠٠

ــ هذا عند اليونان ٠

ــ والرومان ٠٠ وكل الناس ٠٠

فهتفت منتشيا :

ــ بالله احكم العالم يا فاسيليادس ٠

ــ أنت شاب مهذب وقوى ، أى بنت يمكن أن تحبك ولكن لا تكتم والا فكيف يعرف المحبوب أنك تحبه ولا تهتم بلوم الظالم ، ٠٠ خذ ٠

وملأ لى الكأس من جديد فآمنت بقوله واستعدت الثقة المفقودة ثم ذهبت بقلب شكور •

وتمر الأيام ولا تشيب لك شعرة يا فاسيليادس أو يخبو لعينيك ضياء • وذات مساء سألته وأنا أرمقه باعجاب :

ــ كيف تحافظ على شبابك ؟

فأجاب مبتسما فى لباقة :

ــ بمعاشرة الأحباب من أمثالك !

فتناولت الكأس قائلا :

ــ كلامك دائما حلو ••

فسألنى باشفاق :

ــ كيف حال الوليد ؟

ــ يتقدم الى الشفاء ، وفى الطريق آخر فيما يبدو !

ــ مبارك ، هذا عهد الانجاب ، أنت رجل محترم ولا عيب فيك الا انك سريع الشكوى !

ــ الحق أن الحياة لا تسر ••

ــ كيف لا وأنت موظف محترم وزوج وأب ؟

ــ أقصد البلد ، وحياتنا السياسة ، لعلك لا تهتم بذلك ؟

ــ من بعيد ، كثيرا ما أرى من موقفى وراء البار المظاهرات وأسمع الهتافات ، وأرى عساكر البوليس وهم يطــاردون

الطلبة ،ثم تجيء اللوريات وعربات الاسعاف ،كثيرا .. كثيرا ، لماذا أنتم عصبيون هكذا ؟

ـ بلد تعيس الحظ يا فاسيليادس .

ـ هكذا السياسة في كل مكان ، عندنا في اليونان سالت دماء كثيرة . لا تحزن ، أين كنت أمس وأين أنت اليوم ؟ ، وستشرب هنا نخب انتصارات قادمة وسوف أذكرك ، خذ ..

وملأ الكأس من جديد ، وزايل وجهي العبوس وطربت لغير ما سبب وغادرته وأنا أدعو لمودتنا المتبادلة بالخلود .

وازددت مع الأيام اعجابا بحيويته ، وكنت أسترق اليه النظر مستطلعا ولكني لم أعثر على آية من آيات الكبر . وها هما عيناه تشعان بقوة كبلورتين لا يعتورهما تلف ، فمن أين تجيئه القوة المتجددة ؟ .

ـ هل تشرب كثيرا يا فاسيليادس ؟

ـ كلا يا حبيبي ،كأس واحدة قبل الغداء .

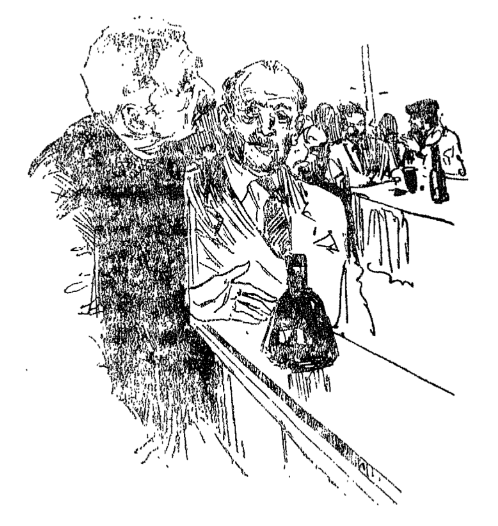
ـ والعشاء ؟

ـ عشائي لبن زبادي وخس وتفاحة .

ـ أليس في حياتك أحزان ؟

ـ مثل جميع الناس ولكني لا أستسلم للحزن كأكثر الناس !

ولاحظ أنني هجرت مجلسي التقليدي الى مقعد وراء



ولكني لا أستسلم للحزن كأكثر الناس !!

البرافان الذى يفصل القهوة عن ركن الشراب فقال :

— ألاحظ أنك تفضل الاختفاء •

فضحكت عاليا وقلت :

— ابنى اليوم فى سن الشباب وقد رأيته مرة وهو يمر أمام القهوة فى رفقة بعض الصحاب ••

— عجيب أن يخاف الأب ابنه !

— شد ما أعانى من الأبناء •

— لماذا يا سيدى وأنت الرجل الطيب ؟

— لا نكاد نتفق فى رأى أو ذوق وأشعر حقا بأنى غريب •

— ولماذا تريدهم على أن يكونوا مثلك ؟

— على أيامنا ••

ولكنه قاطعنى :

— أيام الترقيات والعلاوات الموقوفة !

فلم أتمالك من الضحك وقلت ;

— اذن فأنت لا يزعجك تمرد الأبناء !

— تعلم منهم ! •• تعلم منهم ان استطعت •• خذ ••

فرفعت الكأس وأنا أهتف « فى صحة التمرد والعصيان ! » •

ورغم أن الشخص هو آخر من يعلم بفعل الزمن فى ذاته فقد أقنعتنى علامات لا سبيل لاخفائها بمدى التغير الذى طرأ

على • ومع ذلك لم أكد ألاحظ فى فاسيلياس شيئا •، وذهبت اليه ذات مساء فحدجنى بانكار لم أجهل بواعثه • وبادرنى وهو يملأ الكأس :

ـ لست كعادتك •

فقلت وأنا أخفض جفنى :

ـ أحلت أمس الى المعاش !

فلوح بيده قائلا :

ـ برافو ••

ـ ما معنى التحية يا فاسيليادس ؟

ـ أنك أتممت رحلة موفقة لتبدأ رحلة أخرى ••

ـ أى رحلة يا رجل ؟

ـ الحياة تبدأ بعد الستين ••

ـ فى قهوة افريقيا ؟

فقال وهو يهز رأسه :

ـ كنت تتعامل مع تفاصيل الحياة وآن لك أن تتعامل مع خلاصتها ••

ـ الحق أنى وجدت نفسى لا شىء !

ـ هكذا تكلمت يوما عن الشباب ••

ـ لم يعد أحد معى الا المدام ، ولولا الشعور بالواجب ما زارنى أحد من الأبناء !

ـــ اهتم بأمر واحد هو كيف تستمتع بالحياة بعد الستين ٠

ـــ وهل بقى من الحياة شىء ٠٠

ـــ الحياة القديمة انتهت أما الجديدة فلم تبدأ بعد ٠

فقلت واجما :

ـــ أصاب أحيانا بالدوار فيخيل الى أن كل شىء لا شىء ٠

ـــ صحتك حسنة ، ولك أصدقاء ، والحياة فى البلد لم تعد تسير على وتيرة واحدة ٠

ـــ فى أعماقنا حزن دفين ينتهز الفرص غر المواتية ليطفو فوق السطح ٠

ـــ ولكنه لا يستطيع أن يمحو أفراح الحياة الماضية والراهنة ٠

ـــ المسألة أن لسانك لا ينطق الا بالشهد ٠

ـــ ما زال أمامنا أيام كثيرة للقاء والحديث وتبادل المودة ٠

ـــ لتكن مشيئة الله ٠٠

ـــ وزر من جديد حديقة الحيوان والأسماك والآثار ٠٠٠٠ خذ ٠٠

وملأ الكأس فعجبت أى كنز هو فاسيليادس ٠

ويوما وأنا أتأهب لاستقبال شهر رمضان هاجمنى مرض الكلى ٠ وعادنى الأبناء ٠ وعادنى الأصدقاء فتسلينا بأحاديث الأمراض والسياسة ٠ وذات صباح جاءت زوجتى لتخبرنى

بأن « خواجا» يرغب فى مقابلتى • وما هى الا دقيقة حتى كان فاسيليادس يعانقنى بحرارة وشاربه الكث ينهش فمى وخدى • رأيته بالبدلة الكاملة والقبعة لأول مرة • وقال ضاحكا :

ــ ما أوحش البار من غير ضحكتك ••

فقلت وأنا أتحسس أسفل الظهر :

ــ المغص ! •• أجارك الله يا فاسيليادس ••

ــ دعابة سخيفة ولابد أن تنتهى ، وأعترف لك أن فاسيليادس لا يساوى شيئا بدونك •

ــ وماذا أساوى أنا بدونك يا عزيزى ؟

ــ ومتى ترجع لنا ؟

ــ ربما فى نهاية الأسبوع ، أين الشباب أين ؟

ــ قلت انها دعابة سخيفة ثم نواصل حياتنا الطيبة ••

الحق أن زيارته أنعشت روحى أكثر من الأبناء أنفسهم وليلة عدت الى « افريقيا » تعانقنا أمام الجميع ، ورفعت الكأس وأنا أقول :

ــ فى صحة فاسيليادس رمز الحب والوفاء •

وقصصت عليه حلما زارنى فيه الموت فقال :

ــ لا تصدق ، الموت لا يجىء الا مرة واحدة ، واذا جاء أعقبته سعادة كبرى •

ــ ها أنت تتحدث عما وراء الموت ••

فقال بثقة :

ــ من أين أتيت ؟ « ألا يشبه الظلام الذى أتيت منه الظلام الذى ستذهب اليه بعد عمر طويل ؟ ، وقد أمكن أن خرج من الظلام الأول حياة فما يمنع من أن تستمر الحياة فى الظلام الثانى ؟ !

فصحت وأنا ثمل :

ــ برافو فاسيلبادس ... يا صوت القديسين ..

وقمت بجولة طويلة بين الحدائق والآثار . وجلست فى الخلوات تحت أشعة الشمس المشرقة . ولكن شيئا لم يمنع الواقعة . وغبت عن الوجود زمنا لم أدره . ولما عدت الى الوعى وجدتنى ممددا فوق الفراش كميت . وخطر لى أنها النهاية ولكن تعلقى بالحياة لم يهن . وقال صديق من العواد :

ــ فاسبليادس يبلغك تحياته .

فاختلج جفناى باهتمام حقيقى لأول مرة منــذ الرقاد وسألته :

ــ ترى هل علم بحقيقة حالى ؟

ــ أجل ، أخبره بعض الأصدقاء فحزن جدا ..

وقلت لزوجى بعد ذهاب الصديق :

ــ اذا جاء الخواجا فأدخليه فورا ..

وقلت لنفسى انه لمعجزة حقا وسوف يجدد حياتى بسحره

العجيب ، وكلما دق جرس الباب اختلج جفناى وتأهبت للقاء ، وجاء كثيرون ولكن لم يجىء فاسيليادس ، وتساءلت عما أقعده وعبثت بى الظنون وأرهقنى القلق ، وقلت للصديق ذات يوم :

ـ فاسيليادس لم يزرنى ..

فقال كالمعتذر :

ـ الرجل مرهق بالعمل ..

ـ ولكنه لم يتأخر عن زيارتى فى مرضى السابق ،

وصمت الرجل فقلت متأثرا :

ـ أبلغه أننى زعلان ..

وقلت انه سيجىء حتما مهما تكن شواغله ، ولكن طال الانتظار بلا أمل ، ومضى الحزن يتحول الى غضب ، وقلت انه كان يجاملني ليس الا ، ولما عرف النهاية أسقطنى من الحساب ، وها هو الوغد يتكشف عهده الطويل عن أكذوبة سمجة ، ومودته الحارة عن مهارة محترف ،

وجاء الصديق لزيارتى مرة ثالثة وأنا بين الحياة والموت ، وسمعنى أغمغم باسمه الرنان فى أسى فأدنى رأســه منى وقال :

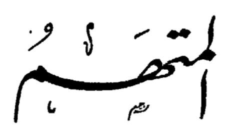
ـ البقية فى حياتك فى فاسيليادس ..

هتفت رغم ضعفى :

ـ لا ..

فقال :

هكذا قلنا جميعا ، لم نصدق أعيننا ونحن نراه وهو يتهاوى وراء البار ، وقبيل ذلك بثوان كان يضحك ويتحدث وهو واقف كتمثال ، ولكن بالله خبرني كيف كان يمكن أن يموت رجل في مثل قوته الا بضربة قاضية ؟ !


المتهم

لأنه وحيد فى سيارته الصغيرة لم يجد تسلية الا فى السرعة • طار فوق شريط الأسفلت المنساب وسط الرمال فى طريق السويس • ولا تنوع فى المنظر مما ضاعف من شعوره بالحدة ولا جديد بذكر فى سبيل يقطعه ذهابا وايابا مرة كل أسبوع • وتراءت له عن بعد سيارة نقل ضخمة فقرر اللحاق بها ثم ضاعف من سرعة سيارته « رمسيس » ومضى يقترب منها • سيارة بترول ضخمة كقاطرة • وثمة راكب دراجة يمسك بركن مؤخرها ، وينطلق بحذاء عجلتها اليسرى الخلفيـــة دون عناء وهو يغنى • ترى من أين جاء راكب الدراجة وأين يقصد وهل كان يطوى الطريق بدراجته لو لم يجد سيارة تجره ؟ ! • وابتسم اعجابا وهو ينظر اليه فى اشفاق • ومر بمجموعة من التلال عن يدينـــه تترامى وراءها بقعـــة خضراء زرعت ذرة واكتنفتها أرض معشوشبة ترعاها الماعز فهدأ من سرعته مؤجلا السباق حتى يتملى الخضرة اليانعة • واذا بصرخة تمزق الصمت • انجذب وجهه الى الأمام بعنف • رأى عجلة السيارة تدوس الدراجة وراكبها وتمضى فى طريقها • صرخ فزعا • وصرخ ينادى السائق • وأوقف سيارته على مبعدة مترين من

الدراجة ثم غادرها دون تفكير ، ودون أن يكف عن مناداة السائق . اقترب فى تهيب من مكان الحادث فرأى جسما ملقى على جانبه الأيسر ، وذراعه اليمنى منطرحة الى جانبه سمراء صغيرة اليد بارزة من قميص أغبر نصف كم مغطـاة الأديم بالسجحات والكدمات ، لا يظهر من وجهه الا عارضه الأيمن ، ورجلاه ما زالتا مطوقتين للدراجة داخل بنطلون رمادى متهتك ينز منه الدم ، وقد هصرت العجلتان وتهشمت أسلاكهما وانكسر جانب المقود ، وثمة حركة تنفس ثقيل عميق سريع تجتاح صدر الضحية الذى بدا شابا فى العشرين أو فوق ذلك بقليل . تقلص وجهه وثبتت فى عينيه نظرة حزن ورثاء ولكنه لم يدر ماذا يفعل . شعر بعجزه فى الخلاء . ونبذ فكرة حمله الى سيارته التى قد يكون فيها القضاء عليه . وأخيرا وجد المهرب من حيرته فى أن يركب سيارته وينطلق بها فى اثر السيارة الجانية حتى يلحق بها ، ولعله يجد فى الطريق نقطة مراقبة أو تفتيش فيبلغ عن الحادثة .

ورجع الى سيارته وهم بالدخول فيها عندما ارتفع صوت ، بل أصوات ، وهى تصيح :

ـ قف .. لا تتحرك ..

التفتت وراءه فرأى جمعا من الفلاحين يركضون نحوه ، آتين من ناحيـة الأرض الخضراء . منهم من يحمل عصـا

أو يقبض على حجر • واضطر الى العدول عن الركوب خشية أن تنهال عليه الأحجار والتفت نحوهم وهو يرجف من دقة موقفه • وأيأسته الوجوه الغاضبة المتوثبة من أى أمل فى التفاهم فمد يده بسرعة الى الخزانة فاستخرج مسدسه ثم سدده نحوهم وصاح بنبرة مختلجة :

ـــ مكانكم ••

أدرك بسرعة خاطفة مضطربة انه بحركته هذه قد قضى على أى أمل أيضا فى التفاهم مستقبلا ولكن لم يكن ثمة وقت لحسن التدبير • وهدأوا من اندفاعهم حتى توقفوا تماما على مبعدة عشرة أمتار • استقرت فى أعينهم نظرة مكفهرة حاقدة • وأضرم من نيرانها العجز غير المتوقع حيال المسدس • وتبدت الوجوه غامقة جافة مرهقة تحت أشعة الشمس •• وتهاوت الأيدى بالعصى والأحجار وتشبثت الأقدام الغليظة الحافية بالأسفلت • وقال رجل منهم :

ـــ أتريد أن تقتلنا كما قتلته ؟

ـــ لم أقتله ، لم أمسه ، ولكن داسته سيارة البترول •

ـــ سيارتك أنت ••

ـــ أنتم لم تروا شيئا ••

ـــ رأينا كل شىء ••

ـــ انكم تمنعوننى من اللحاق بالسيارة الجانية ••

ـ أنت تريد أن تهرب ..

ازدادوا حقدا وازداد خوفا .. وأرعبته لحد الموت فكرة أن يضطر الى اطلاق النار . أن يقتل وأن يجره القتل الى مأزق لا نجاة منه . كيف حل الكابوس بلا نوم .

ـ صدقوني لم المسسته ، وقد رأيت السيارة وهي تدهسه ...

ـ لم يدهسه أحد غيرك ..

ـ كان يجب أن تبلغ أقرب مستشفى .

ـ حصل .

ـ ونقطة البوليس ؟

ـ حصل ..

ـ اذن أرجو أن ننتظر في سلام وسوف يظهر الحق .

ـ لا تهرب وسوف يظهر الحق .

ـ بالله لماذا الاصرار على الباطل ؟

ـ لماذا تقتله !

ـ أى جحيم من العناء والكذب . ومتى تنقضي فترة الانتظار الجهنمية . العذاب البطيء والخوف والفكر المحموم . لماذا وقف ؟ . وكيف تظهر الحقيقة ؟ . حتى سائق السيارة الكبيرة لا يدرى . ولا أمل فى أن يكون الموقف كله حلما مزعجا .

وندت عن الشاب الطريح تأوهة . أعقبتها آهة محشرجة

وأنين طويل هبط حتى الصمت مرة أخرى • وهتف رجل :

ـــ الله ينتقم منك ••

ـــ الله ينتقم من الفاعل ••

ـــ أنت الفاعل !

ـــ الحق على لأنى وقفت •

ـــ ظننت نفسك وحيدا ••

ـــ بل ظننت أن أسعفه •

ـــ تسعفه !

ـــ لا فائدة من الكلام معكم •

ـــ لا فائدة ••

لو أدار لهم ظهره ثانية واحدة لالتهمته الأحجار • لا مهرب من موقف العذاب • ولا سبيل الى السيارة الكبيرة •• هو وحده الفداء • ودون حلم النجاة أهوال وأهوال • ترى كيف تحدد المسئولية • وكيف تقدر العقوبة ؟ • وهل يمكن أن ينجو الشاب المسكين ؟ • وتجلى الحنق فى نظرته تجاه حقد ثابت فى نظراتهم •

★★★

وتراءت فى أقصى الأفق سيارتان • وأخذتا تقتربان حتى تنهد فى ارتياح • وصلت الى مكان الحادث سيارة الاسعاف وسيارة البوليس • انتقل رجال الاسعاف الى الدراجة فورا

وأحاط بهم الجميع • خلصوا الدراجة من بين ساقيه بأناة ثم حملوه بعناية الى السيارة • ورجعوا من حيث أتوا • وأبعد العساكر الجمع عن الدراجة وراح الضابط يعاين المكان صامتا • ثم التفت اليه قائلا :

ــ أنت ؟

فصاح الفلاحون بايجاب حتى أسكتهم الضابط باشارة من يده وهو ينظر اليه مستطلعا فقال :

ــ كلا ، كنت أسير وراء سيارة بترول ، وكان قابضا على مؤخرها ، انتبهت الى صرخة فرأيته تحت عجلتها الخلفية •

وصاح كثيرون :

ــ هو الذى داسه ••

ــ لم أمسه ، كنت شاهدا فحسب •

وعادت الضجة فصاح الضابط :

ــ الكلام بنظام ••

وسأله :

ــ هل رأيت الحادث وهو يقع ؟

ــ كلا ، عندما التفت الى مصدر الصرخة رأيت الدراجة تحت العجلة •

ــ ولكن كيف وقع تحتها ؟

ــ لا أدرى ••

ـــ وماذا فعلت ؟

ـــ أوقفت السيارة لأرى ما حل به وما يمكن عمله . وأردت اللحاق بالسيارة ولكني رأيتهم يجرون نحوى بالعصى و الأحجار فاضطررت الى تهديدهم بمسدسى .

ـــ هل تحمل رخصة ؟

ـــ نعم . انى صراف بالسويس وكثير السفر ..

والتفت نحو الفلاحين متسائلا :

ـــ لماذا تتهمونه ؟

فاستبقوا هاتفين :

ـــ رأيناه بأعيننا ومنعناه من الهرب ..

فقال الشاب حانقا :

ـــ كاذبون ، لم يروا شيئا ..

أمر الضابط جنديا بحراسة المكان ، وآخر بابلاغ النيابة ، ثم مضى بالجميع الى النقطة لكتابة المحضر . وأصر على موسى على أقواله كما أصر الفلاحون على أقوالهم . وجعل على يردد بأن التحقيق سيكشف عن الحقيقة . وعرف أن الضحية اسمه عياد الجعفرى وهو تاجر متنقل ، وله معاملات متبادلة مع أكثر الفلاحين . وتساءل على موسى :

ـــ ما الذى يدعونى الى الوقوف لو كنت حقا الجانى ؟

فقال الضابط ببرود :

— ليس المفروض أن تدهس وتهرب •

ولبث الجميع ينتظرون • جلس الفلاحون القرفصاء وجلس على موسى على كرسى باذن من الضابط • ومر الوقت ثقيلا كئيبا غليظا • وبانتهاء المحضر تناساهم الضابط ولم يعد يعنيه من الأمر شيء • وراح يتسلى بقراءة الصحف • ولماذا يصر الفلاحون على اتهامه ؟ • والأدهى أنهم مطمئنون بشهادتهم كأنهم حقا صادقون • هل خدع البصر ؟ • هل فسر أحدهم الموقف بما يحدث حادة لا بما حدث بالفعل ثم تبعه الآخرون بغريزة عمياء ؟ • آه •• لا أمل الا فى نجاة عياد الجعفرى • هو قبل أى انسان آخر الذى يستطيع أن يوقظه من الكابوس بكلمة واحدة •

وقال الضابط برقة ورجاء :

— أيمكن الاطمئنان على حال المصاب ؟

فرمقه الضابط بنظرة لم يرتح لها غير انه اتصل بالمستشفى بالتليفون ثم أعاد السماعة قائلا :

— فى حجرة العمليات ، نزف كثيرا ، ولا يمكن التنبــؤ بالنتيجة •

فتردد لحظات ثم سأل :

— ومتى تجيء االنيابة ؟

— ستعرف ذلك بنفسك عند مجيئها •

فقال وكأنه يخاطب نفسه :

ــ لماذا يجد أناس أنفسهم فى مثل موقفى هذا ؟

فأجاب الضابط وهو يعود الى الجريدة :

ــ لعل عندك الجواب !

وارنمى فى وحدته الموحشة وهو يلقى على المكان نظرة مقت • هؤلاء الفلاحون يودون القضاء عليه ولو تمكن هو من القضاء عليهم لفعل • وهذا الضابط يمارس مهنته كآلة • وثمة قوة عمياء مجهولة تطحنه وكأنها لا تدرى • وهو له أخطاء كثيرة ولكن من السخف ربط أطراف الفوضى بأسباب منطقيــة • وتنهد متمتما :

ــ يارب •

فردد أكثر من صوت لأسباب مناقضة •

ــ يارب !

وفقد أعصابه فصاح بهم :

ــ أنتم لا ضمائر لكم •

فصاحوا :

ــ ربنا بيننا وبينك يا ظالم •

ورفع الضابط وجهه من فوق الجريدة وقال بغضب :

ــ لا •• لا أسمح بذلك •

فقال على ممتعضا :



آه .. لا أمل الا فى نجاة عياد الجعفرى

ـــ لولا الكذب والزور لكنت الآن فى بيتى آمنا •

فقال رجل :

ـــ لولا استهتارك لكان عياد المسكين فى بيته آمنا •

رماهم الضابط بنظرة وعيد عقلت الألسنة • وساد السكون فاستشرى ألم الانتظار • ومر الوقت كأنما يسير الى الوراء •، ومضى علي فى ارهاق غير محتمل حتى اضطر الى الاستغاثة بالضابط من جديد فسأله بلهجة غاية فى الأدب :

ـــ سيدى ، لا أخالك تجهل ما أعانيه من عذاب ، هل يمكن أن أعرف متى تأتى النيابة ؟

فأجاب من وراء الجريدة فى ضجر :

ـــ أتظن أن حادثتك شىء يذكر بالقياس الى الحوادث ؟

كل هذا العذاب شىء لا يذكر • الآمال المهددة بالتلف شىء لا يذكر • العداوة الغامضة الأسباب بينه وبين الفلاحين شىء لا يذكر • والسماء المترامية التى وقع تحتها الحادث أهى شىء أيضا لا يذكر ؟ • وبمرور الوقت ركبه الارهاق وخنقه • ولم يعد يكترث كثيرا للمجازفة فقال :

ـــ سيدى الضابط ••

فقاطعه وكأنه كان يتربص به :

ـــ أنت لا تريد أن تسكت !

ـــ ولكنى فى الواقع معذب ••

ــ لو شاركت فى عذابات كل من يشرف النقطة لمت كمدا من أول يوم .

ــ ألا يمكن السؤال على الأقل عن حال المصاب ؟

ــ سأبلغ بأى جديد عنه دون سؤال من جانبى .

حياتى رهن بحياتك يا عياد . وقد تهزأ الملابسات بذكاء النيابة . وهل ادخالى الى السجن بلا ذنب شىء لا يذكر ؟ ! ، ومن الخير ان أمكن أن ترمى بالأعباء من فوق كاهلك . وأن تبتسم فى استهتار وبلاهة . وكانت الدموع تراودك وها هو الضحك يوشك أن يجتاحك . بالله تذكر ذنوبك الماضية لتتعزى عن مأزقك ولكن لا علاقة ولا رابطة . من قال ان الفوضى تعالج بالفوضى . رأعين هؤلاء الفلاحين ترى من خلال منظار أسود ركبته الأجيال فوقها ولكننى لم أسهم فى صنعه . أو لعلنى أسهمت وأنا لا أدرى . وها أنا أفكر لأول مرة فى حياتى . وسوف أفكر طويلا وراء الجدران . وقد تم التعارف اليوم بينى وبين أشياء لم أعرفها قبلا بالسماع . المصادفة ، القدر ، الحظ ، النية والعمل ، الفلاح والضابط والأفندى ، الرياح الموسمية ، البترول ، سيارات النقل ، قراءة الصحف فى النقطة ، ما يذكر وما لا يذكر . كل شىء يجب أن يعاد التفكير فيه . كل شىء كشىء وككل . يجب أن نبدأ من الألف لنفهم كل شىء ولنسيطر على كل شىء وحتى لا يوجد شىء لا يذكر .

وليس الزلزال بمسئول ولكن المسئول هو الجهل • وعليك ألا تذعن بعد اليوم لدكتاتورية المجموعة الشمسية ولا للغة النجوم الغامضة • فكيف ترهب الضابط الذى يقرأ صفحة الوفيات دون أن يعزى أحدا ؟ •

وقال بصوت قوى :

ــ شىء لا يطاق !

ظهر وجه الضابط فوق الجريدة حاملا نظرة انكار فقال بحدة :

ــ حضرتك تقرأ الجريدة ولا تفعل شيئا !

ــ أنت تقول ذلك !

ــ كما سمعت ••

ــ ألا تخاف ••

ــ لا أخاف شيئا ••

ــ ان كنت فقدت أعصابك فعندى لكل داء دواء !

ــ وأنا عندى لكل داء دواء •

وقف الضابط وهو يقول بغضب :

ــ أنت !؟

ــ أنت تؤخر حضور النيابة ، أنت تمنع القانون ••

ــ سأضعك فى السجن •

ــ أهو أفظع من هذه الفوضى ؟

ــ أتريد أن تدعى الجنون ؟

ووقف علي محتدا وفي عينيه نظرة زائغة • ونادى الضابط العسكرى • ولكن جرس التليفون رن • تناول الضابط السماعة واستمع بعض الوقت • وأعاد السماعة وهو ينظر الى علي بشماتة وحقد ويدارى في ذات الوقت ابتسامة ثم قال :

ــ مات المصاب متأثرا بجراحه !

وجم علي موسى قليلا • تلقى النظرة الشامتة بغضب جنوني • وصاح بصوت مرتجف :

ــ القانون لم يقل كلمته بعد ، واني لمنتظره ••

السَّكْرانُ يُغنّي

خلت الحانة من الزبائن تماما • ومسح الجرسون العجوز على صلعته وهو يتثاءب بصوت مرتفع كالتوجع ومضى يكوم المقاعد الخشبية والمناضد العارية • ومشى صاحب الحانة بين أرجائها المتقاربة متفقدا الأركان والمرحاض ، وعدّ القروش على مهل ، وأغلق الأدراج المدسوسة تحت الطاولة ، ودرج منضدة الماركات ، ثم أطفأ المصباح المـدلى فوق الطـاولة فانخفض الضوء بالمكان وزداه كآبة على كآبة • وقال مخاطبا الجرسون :

ــ أسرع فالساعة تدور فى الثانية صباحا •

فانتهى الرجل من تكويم المقاعد والمناضد ثم خلع المريلة المتسخة فى أكثر من موضع وعلقها بمسمار منغرز فى الجدار وسار نحو الباب يجر قدمين ثقيلتين مدفونتين فى حذاء من المطاط ، وجسمه النحيل يتأرجح فى جلباب فضفاض • وأطفأ صاحب الحانة المصباح الآخر فساد الظـلام وغادر المكان الى الخارج ثم أغلق الباب وذهب ، باعثا من حذائه الثقيل أطيطا متواصلا كدر صمت الطريق •

ثمة رجل لابدّ" تحت البرميــل الأوســط يترقب ذهاب الرجلين بفارغ الصبر . تسمع أطيط الحذاء حتى . وتنهد فى ارتياح ثم زحف خارجا من تحت البرميل . وقف فى ظلام دامس ؛ يحملق فى الظلام ولا يرى شيئا ، ولا شبح شىء ، أعمى بكل معنى الكلمة ، وضــائع كأنما ألقى به فى عالم الغيب . ولكن اذا كان البرميل الوسطانى وراءك فالبار الى اليسار ، وعند طرف البار يرقد صندوق النقود . وسار بحذر الى اليسار مادًّا ذراعيه حتى مست أصابعه الطاولة ، ثم مشى بحذائها معتمدا عليها حتى المنضدة العالية ، ورائحة قوية من مزيج من المخلل والسردين والجبن تملأ أنفه . ضائع تماما ولكن ها هو الدرج المنشود . ها هنا توجد نقود مانولى التى يكسبها من بيع أقداح النبيذ المقطر من نيران الجحيم . وأخرج من جيبه آلة كالمبرد ومضى يعالج بها القفل حتى فتحــه . واقتحمته عطسة آتية من الخارج فشلت يده ، وفى سره سب ولعن ، وتخيل حانقا المتسكع فى الشارع الضيق ، شــبه المظلم ، الذى يضيئه فانوس واحد فى طرف منحدره عند اتصاله بشارع البواكى . ودس يده فى الدرج بلهفة ، وتحسس أرضه من طرف الى طرف ، ولكنه لم يعثر على شىء . لا شىء ألبتة . يا مانولى الكلب ، أتأخذ الايراد معك ؟ ، ألا تترك مليما ؟ ، أليست الحانة آمن على النقود من الطريق والبيت ؟ .

وقطب فى غيظ وحنق • واشتد ضيقه بالظلام • هل تضيع المغامرة هباء ! ، ويهزأ الفراغ من الحيــلة والعــدة ودهاء التدبير ! ؛ ودفعه الغيظ الى فتح أدراج الطاولة جميعا ولكنه لم يعثر الا على بقايا الجبن الرومى والزيتون والفول النابت • ولبث واقفا وراء الطاولة بمكان العجوز الداهية يفكر فى لا شىء ويتناول حبات من الفول بلا تذوق • وسلم أخيرا بهزيمته • ولكنه عزم على الترفيه عن نفسه قبل أن يعالج النافذة ليفر • مد يده وراء ظهره الى الرف فتناول زجاجة نبيــذ • فض سدادتها وأطبق عليها فاه وراح يشرب بشراهة ونهم حتى أفرغها • ورمز انتباهه ليتابع تقلب الدوامة فى جوفه • رهيب •• جليل •• لا مثيل له •• ولا يقدر بثمن • ولا وجه لانفاق النقود خير من الخمر فلا موجب للزعل • المؤسف حقا أن يفوت عربتك الكارو موسم القرافة غدا فلعنة الله عليك يا ما نولى • ومد يده فتناول زجاجة ثانية ، ما أفظع الظلام والعماء • ليشرب حتى يروى وليؤخل الشروع فى الهرب حتى يقوم العسكرى بدورة المرور • ولكن الظلام يقوم كالسد وله أنفاس مخمورة وقبضة من الصخر • وها هى زجاجة ثالثة من المياه النارية • ويجب أن تجلس وليكن فوق البار • مضى مانولى والنقود معه فالى الجحيم يا مانولى • وليس ألعن من الجحيم الا الظلام • وتنحنح بلا حذر فسرت النحنحة فى ظلام الحانة

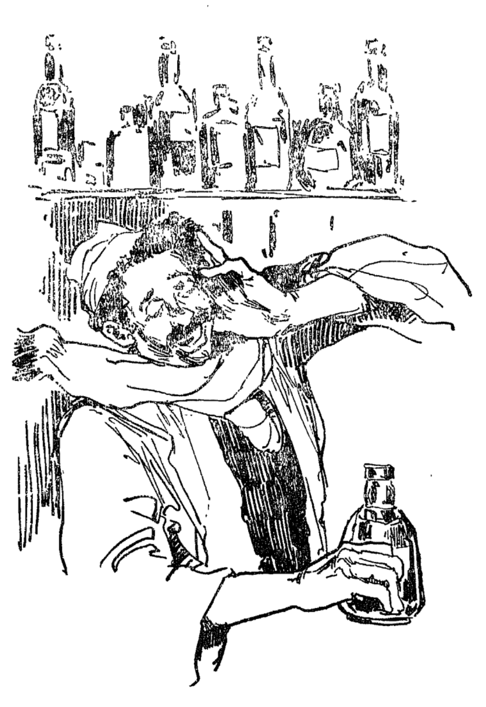
ولكنه لم يبال كثيرا • لا يبالى أن يبالى • والحق أنك عدو الظلام •، انى أعمل فى الشمس وأنام تحت النجوم وفى ليالى الشتاء يضىء فانوس الحارة حجرتى فى البدروم • وضربت من الرجال عددا يفوق الحصر وأرمى بجسدى على العصى بلا خوف ولكنى أخاف أن يمزق جلبابى الوحيد • وحمارى يجرنى وهو عار فلا يتعرض له أحد أما أنا فلا غنى لى عن الجلبـــاب والخمر • ورفع الزجاجة الرابعة فقرقر صوت الشراب وهو ينصب فى حلقه ويجلجل بين الجدران الغارقة فى الصمت والظلام • وقال لى الشيخ زاوى لا تسكر فقلت له أنا سلطان الترك واعجم فقال لى عليك لعنة الله فحلفت يمينا لأسمين حمارى بالزاوى • وراح يدندن بصوت سرّى « أوان الوصل » ولما تناول الزجاجة الخامسة اضطجع على راحتيه ومد ساقيه فوق الطاولة • وتذكر شاعر الربابة فتساءل لماذا تختفى الأشياء الجميلة • واندفع يغنى كأنه فى بيته :

أوان الوصل قرب بالتهانى

وتلوت النغمة المخمورة ولكنه هز رأسه فى اعجاب • وعند الهنك ارتفع صوته إلى طبقة عالية • واعتدل فى جلسته وراح يصفق بيديه •

واذا بقبضة تهوى على الباب وصوت العسكرى يصيح :

ـــ من بالداخل ؟



واندفع يغنى كأنه فى بيته : أوان الوصل قرب بالتهانى

ولم يكف أول الأمر عن الهنك • ولكن تتابع الخبط أزعجه فأمسك وهو بتمتم بغيظ « لا منكم ولا كفاية شركم » • وتساءل فى عظمة :

ـ من أنت ؟

ـ أنا العسكرى •

ـ وماذا تريد ؟

ـ عجيبة ! •• قل من أنت ؟

فأجاب وهو بضحك :

ـ زبون !

ـ الدنيا نامت فكيف بقيت أنت فى الداخل ؟

ـ وما شأنك أنت ؟

ـ يا سكير يا عربيد ستدفع ثمن وقاحتك •

ـ ليس معى مليم واحد !

ـ انى أعرف صوتك ، رغم السكر فانى أعرف صوتك •

ـ من الذى لا يعرف أحمد عنبة !

ـ عربجى الكارو !

ـ بعينه •• هل من خدمة يا شاويش ؟

وصفر العسكرى فأرهب سكون الليل • وتحسس الرجل الجدار فوق الطاولة حتى عثر على مفتاح الكهرباء فأضاء المصباح • وقطب وهو يضيق عينيه • ومضى يتفحص

المكان بعناية حتى استقرت عيناه الحمراوان الجاحظتان على موقد الجاء بصفيحة الجاز • ودار رأسه ودارت به أفكار فى سرعة فلم يكد يمسك باحداها ثانيـــة واحـــدة • وكاد ينسى العسكرى وصـــوته ولكن ترامت اليه من الخـــارج ضـــجة وضوضاء • آه •• ضابط النقطة ، وعساكر ، وسكان الأرصفة من جامعى الأعقاب وآخرون ، وميز صوت مانولى فصـــاح بغضب :

ــ مانولى !

فقال الرجل باضطراب :

ــ أنا ما نولى يا عم أحمد ••

ــ لا تفتح الباب •• عند أول حركة فى الباب ستصبح حانتك شعلة من النيران ••

ــ لا •• لا تحرق نفسك !

ــ لا شأن لك بى يا مانولى ، الجاز فى كل مكان ، فوق الأرض والبراميل والمقاعد والمناضد ، وها هو عود الكبريت فى يدى •• احذر يا مانولى ••

قال الرجل باضطراب واضح :

ــ هدىء أخلاقك ، لن أفتح حتى تأمر ••

ــ من أين لك هذا الأدب يا مانولى ؟

ــ طول عمرى مؤدب •• ، هدىء أخلاقك وقل لى ماذا تريد ••

ــ عندى كل ما أريد •

ــ ألا تريد أن تخرج ؟

ــ ولا أن يدخل أحد •

ــ لا يمكن أن تبقى فى الداخل الى الأبد !

ــ ممكن جدا ، عندى كل ما أريد •

ــ أنا آسف ، لقد أغلقت الباب عليك خطأ !

ــ أنت تكذب وأنت تعرف أنك كاذب •

ــ ولكن ذلك حصل بالفعل •

ــ تعرف أنى هنا لأسرق •

ــ لا شىء عندك يستحق السرقة •

ــ وبراميل النبيذ السام ؟

ــ كل ما شربت هدية منى اليك ••

ــ ولا مليم فى الدرج ••

ــ ليس الدرج للنقود ••

ــ لماذا تغلقه اذن يا ما نونى ؟

ــ عادة سيئة ، هدىء أخلاقك ولا تحرق نفسك ••

ــ أنت خائف على ؟

ــ طبعا •• البراميل طظ ولكنك روح ••

ـــ كذاب يا ما نولى وسل العساكر حولك ..

فى أثناء ذلك قام رجال الشرطة بنشاط واسع . أخلوا البيت الذى فى أسفله الحانة . واتصلوا بأصحاب الحوانيت الملاصقة للحانة من تجار الخشب والبوية والخردوات العاملين فى الطريق المهدد بالدمار . وسرعان ما أقبلت سيارات الحريق وأخذت أهبتها . وقهقه أحمد عنبة طويلا وصاح :

ـــ العود فى يدى يا مانولى ..

فقال الرجل بانكسار :

ـــ لا ذنب لى ، هدىء أخلاقك ..

ـــ شربت خمس زجاجات فى صحة خراب بيتك ..

ـــ اشرب السادسة ولكن لا تحرق نفسك ..

وراقته الفكرة فمد يده الى الرف ثم استأنف الشرب . وشعر بأنه يستمتع بآخر وقت طيب متاح . وجاءه صوت هادىء يقول وقد سكنت الضوضاء :

ـــ يا أحمد !

آه .. لا يمكن أن يخطىء هذا الصوت العميق الغليظ .

ـــ حضرة الضابط ؟

ـــ نعم ..

ـــ أهلا وسهلا ..

ـ يجب أن تعقل وتتركنا نفتح الباب ••

ـ لم ؟

ـ ليتسلمه صاحبه ••

ـ الخمارة لمن يشرب !

ـ اعقل يا أحمد ••

ـ وأنا ؟

ـ ستخرج آمنا سالما ••

ـ وبعد ذلك ؟

ـ لا شيء البتة ••

ـ حتى أنت تكذب كمانولى !

ـ ستسأل عن وجودك فى الحانة ولكن واضح أنك نمت من السكر ، وفقدت وعيك ، ولا ذنب عليك ••

ـ والأدراج المكسورة ؟

ـ فعلت ذلك دون وعى وتحت تأثير السكر ••

ـ آه منك •• والصفح والضرب والسب والسجن ؟ !

ـ لا •• لا •• أعدك بأحسن معاملة •

وأفرغ الزجاجة أو كاد ، ثم صاح :

ـ أحمد عنبة سلطان الترك والعجم وكلكم ركش ••

ـ الله يسامحك ••

ـ يا حضرة الضابط أنا فاهمك ••

ـ الله يسامحك •

ـ أتذكر يوم بال الحمار أمام النقطة وأنت خارج ؟

ـ لم أفعل شيئا ••

ـ تركت الحمار وصفعتنى أنا ••

ـ مجرد مداعبة ••

ـ جاء دورى فى المداعبة !

ـ ولكن لا تقتل نفسك •

ـ نفسك ! •• هل تهمك نفسى حقا ؟

ـ طبعا ! • وتهمنى سلامه الناس والدكاكين ••

ـ الناس فى الخارج والدكاكين أشياء لا أتعامل معها ••

ـ ولكنك تخاف الله ••

ـ أنت لا تخاف الله !!

ـ وتكره الأذى •

ـ أنت تحب الأذى ••

ـ الله يسامحك •

ـ عود الكبريت فى يدى فابتعدوا عن الباب •

وأتى على بقية الزجاجة وراح يغنى « فى العشق ياما كنت أنوح » • ولما انتهى من المقطع الأول جاءه صوت الضابط :

ــ أحسنت يا عم ولعلك عدت الى عقلك •

فأجاب ساخرا :

ــ تقضيت على الزجاجة السادسة ••

ــ ستقتل نفسك ••

ــ اسمع ، كلمة أخيرة ••

ــ نعم ؟

ــ قل « أنا مرة » ••

ــ لا يرضيك ذلك •

ــ يرضينى كل الرضـــا ، وهـــذا شرطى لكى أترككم تفتحون ••

فصاح مانولى :

ــ أنا مرة ••

ــ أنت مرة بلا شرط ولكن على الضابط أن يقولها ••

ــ عيب يا أحمد ••

وقهقه طويلا ثم صاح بلهجة آمرة :

ــ اهتفوا بحياتى ••

وانقضت دقيقة من الصمت ثم دوت عاصفة من أصوات الغلمان والأهالى « ليحيا أحمد عنبة ! » • وتواصل الهتاف فوثب الى أرض الحانة وراح يرقص فى زهو وابتهاج ، ودار

فى الفراغ المحدود فدارت معه المقاعد والمناضد والسـقف والدنيا جميعا . وانفتح الباب فجأة فى غفلة منـه وانقض الجنود . ووقف بترنح بين أيديهم القابضـة على جلبـابه وساعديه وعنقه . ورغم ذلك كله ألقى على الجميع نظرة سلطنة متعاظمة كأنما هى هابطة من السماء . وقال بنبرة ثقيلة نائمة كأنها مسجلة بالتصوير البطىء :

ــ ليس معى عود كبريت واحد ..

جَنَّةُ الأَطْفَال

(خمارة القط الأسود)

ـ بابا ••

ـ نعم •

ـ أنا وصاحبتى نادية دائما مع بعض ••

ـ طبعا يا حبيبتى فهى صاحبتك •

ـ فى الفصل ، فى الفسحة ، وساعة الأكل ••

ـ شىء لطيف وهى جميلة ومؤدبة •

ـ لكن فى درس الدين أدخل أنا فى حجرة وتدخل هى فى حجرة أخرى ؟

لحظ الأم فرآها تبتسم رغم انشغالها بتطريز مفرش فقال وهو يبتسم :

ـ هذا فى درس الدين فقط ••

ـ لم يا بابا ؟

ـ لأنك لك دين وهى لها دين آخر •

ـ كيف يا بابا ؟

ـ أنت مسلمة وهى مسيحية •

ـ لم يا بابا ؟

ـ أنت صغرة وسوف تفهمين فيما بعد •

ـ أنا كبيرة يا بابا •

ـ بل صغيرة يا حبيبتى ••

ـ لم أنا مسلمة ؟

عليه أن يكون واسع الصدر وأن يكون حذرا ولا يكفر بالتربية الحديثة عند أول تجربة • قال :

ـ بابا مسلم وماما مسلمة ولذلك فأنت مسلمة •

ـ ونادية ؟

ـ باباها مسيحى وأمها مسيحية ولذلك فهى مسيحية •

ـ هل لأن باباها يلبس نظارة ؟

ـ كلا لا دخل للنظارة فى ذلك ، ولكن لأن جدها كان مسيحيا كذلك ••

وقرر أن يتابع سلسلة الأجداد الى ما لا نهاية حتى تضجر وتتحول الى موضوع آخر ولكنها سألت :

ـ من أحسن ؟

وتفكر قليلا ثم قال :

ـ المسلمة حسنة والمسيحيه حسنة ••

ـ ضرورى واحدة أحسن ؟

ـ هذه حسنة وتلك حسنة •

ـ هل أعمل مسيحية لنبقى معا دائما ؟

ـــ كلا يا حبيبتى ؛ هذا غير ممكن ، كل واحدة تظل كباباها وماماها ..

ـــ ولكن لم ؟

حق ان التربية الحديثة طاغية ! .. وسألها :

ـــ ألا تنتظرين حتى تكبرى ؟

ـــ لا يا بابا ..

ـــ حسن ، أنت تعرفين الموضة ؟ واحدة تحب موضة وواحدة تفضل موضة ، وكونك مسلمة هو آخر موضة ، لذلك يجب أن تبقى مسلمة ..

ـــ يعنى نادية موضة قديمة ؟

الله يقطعك أنت ونادية فى يوم واحد . الظاهر أنه يخطىء رغم الحذر . وأنه يدفع بلا رحمة الى عنق زجاجة . وقال :

ـــ المسألة مسألة أذواق ولكن يجب أن تبقى كل واحدة كباباها وماماها ..

ـــ هل أقول لها انها موضة قديمة وأننى موضة جديدة ؟

فبادرها :

ـــ كل دين حسن ، المسلمة تعبد الله والمسيحية تعبد الله ..

ـــ ولم تعبده هى فى حجرة وأعبده أنا فى حجرة ؟

ـــ هنا يعبد بطريقة وهناك يعبد بطريقة ..

ـــ وما الفرق يا بابا ؟



كل دين حسن ، المسلمة تعبد الله والمسيحية تعبـد الله

ـــ ستعرفينه فى العام القادم أو الذى يليه ، وكفاية أن تعرفى الآن أن المسلمة تعبد الله والمسيحية تعبد الله .

ـــ ومن هو الله يا بابا ؟

وأخذ . وفكر مليا . ثم سأل مستزيدا من الهدنة :

ـــ ماذا قالت أبلة فى المدرسة ؟

ـــ تقرأ السورة وتعلمنا الصلاة ولكنى لا أعرف . فمن هو الله يا بابا ؟

فتفكر وهو يبتسم ابتسامة غامضة وقال :

ـــ هو خالق الدنيا كلها .

ـــ كلها ؟

ـــ كلها .

ـــ معنى خالق يا بابا ؟

ـــ يعنى انه صنع كل شىء .

ـــ كيف يا بابا ؟

ـــ بقدرة عظيمة ..

ـــ وأين يعيش ؟

ـــ فى الدنيا كلها ..

ـــ وقبل الدنيا ؟

ـــ فوق ..

ـــ فى السماء ؟

ـ نعم •

ـ أريد أن أراه •

ـ غير ممكن •

ـ ولو في التلفزيون ؟

ـ غير ممكن أيضا •

ـ ألم يره أحد ؟

ـ كلا ••

ـ وكيف عرفت أنه فوق ؟

ـ هو كذلك •

ـ من عرف أنه فوق ؟

ـ الأنبياء •

ـ الأنبياء ؟

ـ نعم •• مثل سيدنا محمد ••

ـ وكيف يا بابا ؟

ـ بقدرة خاصة به •

ـ عيناه قويتان ؟

ـ نعم •

ـ لم يا بابا ؟

ـ الله خلقه كذلك •

ـ لم يا بابا ؟

وأجاب وهو يروض نفاد صبره :

ـ هو حر يفعل ما يشاء ..

ـ وكيف رآه ؟

ـ عظيم جدا ، قوى جدا ، قادر على كل شىء ..

ـ مثلك يا بابا ؟

فأجاب وهو يدارى ضحكة :

ـ لا مثيل له .

ـ ولم يعيش فوق ؟

ـ الأرض لا تسعه ولكنه يرى كل شىء .

وسرحت قليلا ثم قالت :

ـ ولكن نادية قالت لى انه عاش على الأرض .

ـ لأنه يرى كل مكان فكأنه يعيش فى كل مكان !

ـ وقالت ان الناس قتلوه !؟

ـ ولكنه حى لا يموت .

ـ نادية قالت انهم قتلوه ..

ـ كلا يا حبيبتى ، ظنوا أنهم قتلوه ولكنه حى لا يموت .

ـ وجدّى حى أيضا ؟

ـ جدك مات .

ـ هل قتله الناس ؟

ـ كلا ، مات وحده ..

ـ كيف ؟

ـ مرض ثم مات ..

ـ وأختي ستموت لأنها مريضة ؟

وقطب قائلا وهو يلحظ حركة احتجاج آتية من ناحية الأم :

ـ كلا .. ستشفى ان شاء الله .

ـ ولم مات جدى ؟

ـ مرض وهو كبير ..

ـ وأنت مرضت وأنت كبير فلم لم تمت ؟

ونهرتها أمها فنقلت عينيها بينهما فى حيرة ، وقال هو :

ـ نموت اذا أراد الله لنا الموت .

ـ ولم يريد الله أن نموت ؟

ـ هو حر يفعل ما يشاء .

ـ والموت حلو ؟

ـ كلا يا عزيزتى ..

ـ ولم يريد الله شيئا غير حلو ؟

ـ هو حلو ما دام الله يريده لنا .

ـ ولكنك قلت انه غير حلو .

ـ أخطأت يا حبيبتى ..

ـ ولم زعلت ماما لما قلت انك تموت !

ـ لأن الله لم يرد ذلك بعد •
ـ ولم يريده يا بابا ؟
ـ هو يأتي بنا الى هنا ثم يذهب بنا •
ـ لم يا بابا ؟
ـ لنعمل أشياء جميلة هنا قبل أن نذهب •
ـ ولم لا نبقى ؟
ـ لا تتسع الدنيا للناس اذا بقوا •
ـ ونترك الأشياء الجميلة ؟
ـ سنذهب الى أشياء أجمل منها •
ـ أين ؟
ـ فوق •
ـ عند الله ؟
ـ نعم •
ـ ونراه ؟ •
ـ نعم •
ـ وهل هذا حلو ؟
ـ طبعا •
ـ اذن يجب أن نذهب ؟
ـ ولكننا لم نفعل أشياء جميلة بعد •
ـ وجدي فعل ؟

ـــ نعم ..

ـــ ماذا فعل ؟

ـــ بنى بيتا وزرع حديقة ..

ـــ وتوتو ابن خالى ماذا فعل ؟

وتجهم وجهه لحظة ، واسترق الى الأم نظرة مشفقة ، ثم قال :

ـــ هو أيضا بنى بيتا صغيرا قبل أن يذهب ..

ـــ لكن لولو جارنا يضربنى ولا يفعل شيئا جميلا .

ـــ ولد شقى .

ـــ ولكنه لن يموت !

ـــ الا اذا أراد الله ..

ـــ رغم أنه لا يفعل أشياء جميلة ؟

ـــ الكل يموت ، فمن يفعل أشياء جميلة يذهب الى الله ومن يفعل أشياء قبيحة يذهب الى النار ..

وتنهدت ثم صمتت فشعر بمدى ما حل به من ارهاق . ولم يدر كم أصاب ولا كم أخطأ . وحرك تيار الأسئلة علامات استفهام راسبة فى أعماقه . ولكن الصغيرة ما لبثت أن هتفت :

ـــ أريد أن أبقى دائما مع نادية .

فنظر اليها مستطلعا فقالت :

ـــ حتى فى درس الدين !

وضحك ضحكة عالية • وضحكت أمها أيضا • وقال وهو يتثاءب :

ــ لم أتصور أنه من الممكن مناقشة هذه الأسئلة على ذاك المستوى !!

فقالت المرأة :

ــ ستكبر البنت يوما فتستطيع أن تدلى لها بما عندك من حقائق ؟!

والتفت نحوها بحدة ليرى مدى ما ينطوى عليه قولها من صدق أو سخرية فوجد أنها قد انهمكت مرة أخرى فى التطريز •

فِردوس

كل شيء يتحرك بلا ضابط والجدران على الجانبين تتموج •
لا غرابة فى ذلك ولكن الغريب حقا هو تهافت الأضواء التى
كاد يبتلعها الظلام • وأغـــرب من كل شيء ذلك الصمت ــ
أو ما يشبه الصمت ــ كأن النوم يلف الطريق • اما أن الذاكرة
خداعة كاذبة تختلق ما لا أصل له ، واما أن الدنيا تتغير بقوة
لا ترحم الذكريات • على ذاك لم يخطر له التراجع على بال •
ولم يفتر حنينه ، حنينه الى فترة من العمر ذهبت الى غير
عودة ، ولعن من الأعماق احساسا ملحا لم يعن بتسميته •
ولكن أليس التغير أفدح مما تصور ؟ • ما معنى وقوف سيارات
النقل هنا وهناك ؟ • أين المقاهى الكثيرة والحانات ؟ • وعلى أى
ضوء تخطر النساء بحليهن الزائفة وملابسهن المتهتكة ؟• تكلم
يا طريق السرور والحزن ، لا تقف متجهما كأنك لا تعرفنى •
ها هى البواكى على الجانبين ولكنها لا تنطوى على ضوء
يذكر ، ولا منظر ، ولا صوت ، ماذا جرى ؟ • وها هو السلم
الصاعد الى الدرب ولكن أين العسكرى ؟ • ولا حنجرة تغنى
ولا وتر يعزف ولا شتمة واحده • والصيدلى العجوز السيىء

السمعة ودكان كل شيء لزوم الشيء أين ؟ • لا نكتة ، لا صرخة ، لا معركة ، لا تهديد بمعركة ، لا قدم تزل ولا استغاثة ؛ لا سحنة غريبة ولا أحد يقيء ، لا أحد يرقص ولا أحد يحاول الانتحار ، لا خلاف على الحساب ولا نشال ولا نصاب ولا قواد ، لا عصا ارتفعت ولا كرسي طار في الهواء ، لا يوجد الا سيارات النقل والحوانيت المغلقة ، والظلام الشامل وبضع فوانيس متباعدة •

عند مطلع الدرب رأى قهوة صغيرة فتحول نحوها كالمندفع • لعلها النقطة الوحيدة التي يلتقى عندها الماضي والحاضر • جلس في نفس المكان ، ربما على نفس المقعد ، ولكن واضح أن صبي القهوة وجه جديد وكذلك المعلم صاحبها • لم ير من مجلسه شيئا يستحق الذكر وثمة شيء غامض في الجو كالنذير • رقال للصبي الذي مثل بين يديه :

ـــ أين أهل الحي ؟

فأجاب الغلام الذي توقع سؤالا آخر :

ـــ في بيوتهم •

ـــ لا يوجد أحد في الطريق ولا توجد أنوار ؟

دارى الغلام ابتسامة فقال الرجل لنفسه انه قد أفرط وأن منظره ولا شك مثير للغاية • وسأله الغلام :

ـــ ماذا تحب أن تشرب ؟

ـــ واحد كونياك !

لم يعد فى وسع الغلام اخفاء ابتسامته ولبث متحيرا •

ــ واحد كونياك من غير مزة ••

ــ قهوة •• شاى •• قرفة •• جوزة ••

ــ قلت واحد كونياك ••

ــ لا يوجد ••

ــ لكنى شربته هنا مرات ومرات ••

ــ غير مصرح بها فى الأحياء البلدية •

هذا الغلام أبله أو أن رأسه ــ هو ــ يتطور تطــورا شاذا •

ــ ومن مطرب القهوة ؟

ــ أى مطرب ؟ •• لا مطرب للقهوة •

ــ أشار له أن يذهب • ثمة سر سينجلى عن قريب • وأراد أن يناقش صاحب القهوة ولكن ظهرت أول امرأة فى الطريق • جاءت من ناحية السلم ملفوفة فى ملاءتها سافرة الوجه فانتزعته من هواجسه • هى نقطة الالتقاء الحقيقية لا القهوة الخربة •، وثمة امرأة واحدة تمشى بملاءتها فى الحى كله • فردوس • فردوس دون غيرها من نساء الحى • ولما اقتربت ابتسم اليها • همّ بدعوتها لمجالسته ولكنها مضت داخل الدرب دون أن تعيره التفاتة تصاحبها دقات كَعبها العالى فوق البلاط • لعلها لم تره • لا يمكن أن تنسى العشرة الطويلة والسرور والحزن والأحاديث



فردوس • فردوس دون غيرها من نساء الحى

(خمارة القط الأسود)

التى لا تنتهى حتى مطلع الفجر • وغادر القهوة ليتبعها على الأثر • ومالت نحو ثالث باب فدفعته بيدها ودخلت • أوسع خطاه ثم دخل وراءها •

جعل يقترب منها فى الطرقة فى جو تغشاه الظلمة لولا بصيص من النور يترامى اليه من الدرب خلال الباب الموارب ، التفتت متسائلة :

ـ من ؟

أجاب بثقة :

ـ أنا ••

فسألت بحدة وحذر :

ـ من أنت ؟

ـ صاحب هذا الصوت ، ألا تتذكرين ؟

ـ كلا ••

ـ فردوس •

ـ اذهب ••

ـ فردوس •

ـ فردوس فى عينك يا قليل الحيا !

فضحك قائلا :

ـ هذه هي فردوس ، انى أعرف ألاعيبك •

ومد يده ليمسك بساعدها فأفلتت منه وهى تصرخ غاضبة

ثم هوت على وجهه بقبضتها • توقف منزعجا ، وهرولت أقدام فوق السلم • وتلاطمت الجدران بزمجرة ولغط • ثم تجلت أوجه غاضبة على ضوء مصباح تحمله امرأة • وقال فى جفول :

— ماذا جرى ؟ •• أنا زبون !

أحيط به وانهالت عليه الصفعات

— لص ••

— دعونى أتكلم ••

— تكلم يا جبان •

— أنا زبون •

— زبون ! •• من قال ان بيتنا قهوة ••

وانهالت عليه الأكف حتى صرخ • وأمسكوا عن ضربه مليا ، وهم يقربون المصباح من وجهه مستطلعين •

— أفندى !

— عجوز !

— سكران !

توسل قائلا :

— لنتفاهم بلا ضرب ••

— ماذا جاء بك الى هنا ؟

— زبون والله •• ومستعد أدفع الى آخر مليم !

وانهالت عليه اللطمات بشدة حتى سقط تحت الأقدام •

وحال أحدهم دون الاستمرار فى ضربه خشية أن يموت ثم جرى لاستدعاء البوليس • ترك ملقى فوق أرض تربة وهو يغمغم :

ــ الله يسامحك يا فردوس !

ووقف الجميع أمام ضابط القسم • أدلت المرأة والرجال بأقوالهم ، رسأله الضابط :

ــ ما أقوالك ؟

أطل وجهه النحيل المتجعد المتورم فى هيئة زرية وقد انبسطت صلعته مكان الطربوش المفقود ، وتدلى البابيون من بنيقة القميص الممــزق ، وتلطخت جاكتته السوداء بالجـير والتراب ، وتراقص شدقاه حول فم أثرم ، وقال بصــوت متعب :

ــ أقوالهم دليل عليهم ، شهدوا بالاعتداء على بلا سبب ، انى أطالب بكشف طبى عاجل ••

ــ انك سكران لحد الموت ••

ــ هذا شأنى ما دمت لم أعتد على أحد ••

ــ ولكنك اعتديت على السيدة ؟

ــ بل ذهبت وراءها الى البيت كما تقضى الأصول !

ــ الأصول ؟

ــ نعم ، كأى رجل ••

ـ بأى حق ؟

ـ الحق المشروع وأنت سيد العارفين ..

ـ تكلم ولا تضيع وقتى !

ـ طلبتها وفى نيتى أن أدفع لها أجرها فانهالوا على ضربا ..

ـ أتعترف بذلك ؟

ـ طبعا ، لست لصا ولا نصابا ، ولكننى زبون قديم ..

ـ زبون ؟

ـ نعم ، ولا أطلب ذلك للهو أو الفجور ، ولكننى أقدم للمجتمع خدمة مشكورة !

ما شاء الله !

انى أدرس أحوال النسـاء بالحى وخـدماتى مقدرة ومشكورة ..

ـ من كلفك بذلك ؟

ـ واجب انسانى تطوعت له بلا تكاليف .

ـ لا تتوهم أنك تخدع أحدا بسكرك الفاضح ..

ابتسم الرجل ابتسامة بلهاء . ضرب كفا بكف . أجال بصرا زائغا متعبا الوجوه ثم تهاوى مغمى عليه .

★★★

فتح عينيه فوجد نفسه مستلقيا فوق سرير فى حجرة صغيرة ناصعة البياض ذات رائحة طبية • ومضت دقائق قبل أن يعرف أنه هو هو وأنه فى مكان • ودخل رجل لم يره من قبل ولكنه ذو وقار وطابع رسمى • قال انه المأمور فنظر اليه باستغراب • وقال انه يعرفه من قديم ويذكر نشاطه مذ كان يكتب فى الجرائد والمجلات •

ــ الحق أننى كنت من قرائك المغرمين •

تمتم الرجل وهو يتحسس جبينه وفكيه :

ــ فرصة طيبة •

ــ عرفتــك فى القســم وأنت مغــمى عليك فأمرت لك بالاسعافات الضرورية ، أرجو أن تكون أحسن •

ــ أظن ذلك ولكن لا فكرة عندى عما جرى ••

ــ لذلك قصة مؤسفة ستتذكرها فى حينها •

تجلت فى عينيه نظرة ممتعضة فقال المأمور :

ــ دعنى أولا أتلو عليك المحضر •

ــ المحضر ؟

تلا عليه المحضر بأناة ووضوح • تابعه مقطبا ذاهلا • أجل شىء كذاك الجحيم قد لفحه على نحو ما • وسأله المأمور :

ــ كيف حدث ذلك ؟

تمتم بارتباك وحزن :

ـ لا أدرى •

ـ ثابت أنك كنت فى حال سكر بين ولكن هذا لا يكفى •

لم ينبس •

ـ وقد شك الضابط فيما هو أخطر من السكر واقترح على عمل تحليل للمعدة ••

ـ لا ••

ـ لم يحصل •

ـ لا أدرى كيف أشكرك •

ابتسم المأمور وقال :

ـ كنت من المتابعين لدراساتك القيمة ، ولكن كيف حدث ذلك ؟

تأوه الرجل قائلا :

ـ واضح أننى فقدت عقلى تماما •

ـ ولكنك اعتديت على امرأة فى بيتها وتلك جريمة مزدوجة

ـ لا أصدق ••

ـ وستجد مصاعب حقيقية فى محاولة التفاهم مع المرأة وأهلها ••

ـ يا له من مصير أسود ••

ـ حادث خرافى أرجو ألا يتسرب الى الصحافة •

تنهد الرجل الذى ذكر الصحافة • قال انه كان من أعلامها

قبل الاعتزال • قبل أن يعتزلها منذ خمسة عشر عاما • رجع الى قريته كهلا جفت به بواعث النشاط • عاش فى خمول دهرا ثم تاقت نفسه الى زيارة القاهرة • ذهب الى تافرنا كالأيام الخالية ثم ساقته قدماه — كالعادة — الى الدرب اياه •

— ولكنك أول من يعلم بأنه لم يعد حيا للبغاء ، وأول من يعلم متى ألغى البغاء •

— غاب عنى ذلك تماما وأنا فاقد الوعى •

— وكان ما كان ••

— وكان ما كان !

ضحك المأمور بروح مطمئنة لن تتوانى عن مساعدته • وجعل ينوه بكتابه الضخم عن البغاء والبغايا فقال الرجل :

— كان جولة رائعة ، وزرت من أجل تأليفه بلدانا كثيرة فى الشرق و الغرب ، كان دائرة معارف ••

— وكنت تطالب بالغاء البغاء والعناية الانسانية بالبغايا !

— وعندما وقع الالغاء توجت حياتى بالنصر وأقام لى الزملاء حفل تكريم فى شبارد •

— أجل ، كأنى أذكر ذلك ، ولكن لماذا هجرت الصحافة ؟

— كان البغاء المشكلة الجوهرية التى كرست لها قلمى ، تاريخه وأشكاله وضحاياه وجميع ما يتصل به ، وجعلت من

الغائه هدفى ، فلما تحقق ، ولما شبعت من النصر ، وضح لى أنه لم يعد لى شىء يثير اهتمامى !

— ولكن قلمك .. أعنى أن البغاء ليس الا مشكلة من مشكلات لا حصر لها ..

— لم يعد لى قلم ، مات ميتة غريبة ، وتمزقت الأسباب بينى وبين الأشياء ..

— الحق أنى ..

ولكنه قاطعه فى ضجر :

— لقد وقع الالغاء على البغاء وعلىّ فى آن ، ذهبنا معا ، أصبحت غير ذى موضوع ، وبلا عمل ولا حماس ولا هدف ..

تبادلا نظرة ، ثم استطرد :

— رجعت الى قريتى ، وسرعان ما ابتلعنى النسيان .

وتبادلا نظرة أطول ثم ابتسم المأمور قائلا :

— كان الحى ضمن منطقتى وأنا ملازم وكنت أراك كثيرا فى قهوة العربى !

— ذاك كان بعض عملى .

— ولكنك .. أعنى .. كنت تمرح وتلعب ..

— أجل ، كنت القلب الذى يصغى الى أناتهن فى الهزيع الأخير من الليل .

وخيل اليه أن المأمور يجد حرجا فى الافضاء بما لديه من ذكريات فقال :

ـ كأننا جزء من الشر الذى نحاربه ..

ومد يده للمأمور فأعطاه يده فشد عليها ممتنا وهو يقول :

ـ أرجو ـ بفضلك ـ أن أعود الى قريتى مصونا ، ولن أغادرها ما حييت ..

الرَّجُلُ السَّعِيدُ

أستيقظ من نومه فوجد نفسه سعيداً . تساءل : ما هذا ؟!.
لم يحظ بكلمة هي أدق وأصدق فى التعبير عن حاله من « سعيد » . وهي حال تعد غريبة بالقياس الى الأحوال التى تنتابه عند الاستيقاظ من النوم . عادة ما يستيقظ مثقل الرأس من طول السهر فى الجريدة ، أو مرهق الأعصاب والمعدة لافراط فى الأكل والشرب فى حفلة ما ، ودائما تنثال عليه هموم اليوم السابق وشواغل يومه الراهن فيستقبل الحياة فى معاناة وتفكير ثم ينهض من فراشه وهو يشحذ همته لملاقاة المتاعب وتحدى المصاعب . أما اليوم فهو سعيد ، مترع بالسعادة ، وبحال لا تقبل المناقشة ، ولا تمتحن ذكاءه للبحث لها عن صفة مناسبة ، فهي من القوة والوضوح بحيث تفرض ذاتها فرضا على الحواس والعقل جميعا . أجل انه سعيد ، واذا لم تكن هذه هي السعادة فماذا تكون ؟ . انه يشعر بأن أعضاءه كاملة البناء كاملة الوظيفة ، وأنها تعمل بانسجام رائع مع بعضها البعض ومع الدنيا حوله ، وهو يجد في باطنه قوة لا تحد وطاقة لا تفنى وقدرة على تحقيق أى شيء بثقة واتقان وفوز مبين ، وقلبه

يفيض بالحب للناس والحيوان والأشياء وباحســاس غامر بالتفاؤل والبشر ، وكأنه لم يعد يحمل هما ـــ أى هم ـــ حيال الخوف والقلق والمرض والموت والمنافسة والرزق ، وهناك ما هو أخطر من ذلك كله وما يتعذر تحليله فى نفس الوقت ، انه احساس متغلغل فى كل خلية من خلايا جسده وروحه ، يعزف لحن البهجة والرضى والطمأنينة والسلام ، ويناغم فى طربه البديع همسات الكون المضنون بها على غير السعداء .

ثمل بنشوته ، تذوقها فى تمهل وعجب ، تســاءل من أين وكيف جاءت ، لا الماضى يفسرها ولا المستقبل يبررها ، فمن أين وكيف جاءت ؟ ! .. وحتى متى تبقى ؟ ، هــل تصــاحبه حتى الافطار ؟ .. هل تمهله حتى يذهب الى الجريدة ؟ ، ولكن مهلا . انها حال لا تدوم ، لأنها لا يمكن أن تدوم ، ولو دامت لانسان لانقلب ملاكا أو شيئا فوق ذلك ، فليمعن فى تذوقها ، فى معايشتها ، فى تخزين رحيقها قبل أن تصبح ذكرى لا سبيل الى اثباتها أو حتى التأكد منها ..

تناول افطاره بشهية ، لم يصرفه عنه شاغل ما ، ونظر نحو عم بشير وهو يقوم على خدمته بوجه مشرق باسم حتى ساور الرجل شىء من القلق والتساؤل ، فهو لا ينظر نحوه عادة الا لالقاء أمر أو استجواب وان عامله فى أغلب الأحــوال معاملة لا بأس بها . وسأله :

ـ خبرنى يا عم بشير ، أأنا رجل سعيد ؟

ارتبك الرجل . أدرك سر ارتباكه فهو يخاطبه ـ لأول مرة ـ كزميل أو صاحب . وشجعه على الخروج من ارتباكه فطالبه بالاجابة بالحاح غير معهود حتى قال الرجل :

ـ سيدى سعيد بحمد الله وفضله ..

ـ تعنى أننى يجب أن أكون سعيدا ، فمن يشغل مركزى ويقيم فى مسكنى ويتمتع بصحتى يجب أن يكون سعيدا ، هذا ما تود قوله ، ولكن هل ترانى سعيدا حقا ؟

وبالحاح جديد منه أجاب الرجل :

ـ سيدى يجهد نفسه أكثر مما يحتمل البشر ..

وتوقف كالمتردد فأشار اليه أن يأتى بما عنده فقال :

ـ ويغضب كثيرا ، المناقشات الحامية التى تدور مع زوارك ..

فقاطعه بضحكة عالية ثم سأله :

ـ وأنت .. أليس لديك هموم ؟

ـ طبعا ؟ لا يخلو الانسان من هموم .

ـ تعنى أن السعادة الكاملة مطلب مستحيل ؟

ـ هذا هو الغالب على حال الدنيا ...

من أين له أن يتخيل سعادته العجيبة ؟ ، هو أو سواه من البشر ؟ . انها سعادة غريبة فريدة كأنها سر قد خص به وحده

وفى بهو الاجتماعات بالجريدة رأى منافسه الأول فى هذه الدنيا جالسا يتصفح مجلة • الرجل سمع وقع قدميه ولكنه لم يرفع عينيه عن المجلة • لا شك أنه لمحه بطريقة ما ولذلك فهو يتجاهله محافظة على راحة باله • ان الخلاف يحتدم بينهما فى الاجتماعات الدورية حتى يتطاير الشرر ويتبادلا أقسى الكلمات فلا تبقى الا خطوة واحدة على التشابك • ومنذ أسبوع نجح منافسه فى انتخابات النقابة وسقط هو ، باء بطعنة حادة سامة واسودت الدنيا فى عينيه • ها هو يقترب من مجلسه فلا يستفزه منظره ولا تعكر ذكريات النضال صفوه • انه يقترب بقلب خلى صاف • ثملا بسعادته العجيبة ، طافح النظـرة بالتسامح والغفران • كأنما يقبل على انسان آخر لم تقم بينهما عداوة قط ، أو لعله يعد بصداقة جديدة • ولم يجد حرجا ألبتة وهو يحييه قائلا :

ــ صباح سعيد ••

رفع الرجل عينيه فى دهشة ، صمت لحظات قبل أن يفيق من دهشته ، ثم تحيته بايجاز وكأنما لا يصدق أذنيه وعينيه • جلس على مقربة منه وهو يقول :

ــ الجو بديع اليوم ••

فقال الآخر بتحفظ :

ـــ فعلا ••

ـــ جو يقذف بالسعادة فى القلوب •

تفحصه بامعان وحذر ثم تمتم :

ـــ يسرنى أنك سعيد ••

فقال ضاحكا :

ـــ فوق ما يتصور العقل ••

فقال الرجل بلهجة مترددة بعض الشيء :

ـــ أرجو ألا أعكر صفوك عند اجتماع مجلس الادارة ••

ـــ كلا البتة ، رأيى معروف ولكن لا بأس من أن يأخذ الأعضاء برأيك ، لن يفسد ذلك على سعادتى !

قال الرجل باسما :

ـــ لقد تغيرت كثيرا ما بين يوم وليلة ••

ـــ الحق أنى سعيد ، فوق ما يتصور العقل •

سأله وهو يتفرس فى وجهه بعناية :

ـــ أراهن أن نجلك العزيز قد عدل عن فكرة الاقامة فى كندا !

ضحك عاليا وقال :

ـــ أبدا ، أبدا يا عزيزى ، ما زال عند رأيه ••

ـــ ولكن كان ذلك مصدر حزنك الأول ••

ـــ أجل ، طالما رجوته أن يعود رحمة بوحدتى وخـــدمة



الحق أنى سعيد ، سعيد فوق ما يتصور العقل

(خمارة القط الأسود)

لوطنه ا ولكنه أخبرنى بأنه سيفتح مكتبا هندسيا مع شريك كندى ، بل ودعانى الى اللحاق به ، فليعش حيث يطيب له المقام ، وها أنا ــ كما ترى ــ سعيد ، سعيد فوق ما يتصور العقل ..

لم تخل نظرة الآخر من ارتياب ولكنه قال :

ــ شجاعة نادرة المثال !

ــ لا أدرى ما هى ولكنى سعيد بكل معنى الكلمة .

أجل ها هى السعادة ، دسمة متينة ذات وزن وكينونة . راسخة كقوة مطلقة ، ذائعة كالهواء ، عنيفة كالشعلة ، ساحرة كالشذا ، خارقة للطبيعة فلا يمكن أن تدوم .

وآنس الآخر الى تودده فاستنام اليه وقال :

ــ الحق انى أتصورك دائما انسانا ذا طبيعة حادة عنيفة من شأنها أن تشقى صاحبها وأن يشقى بها .

ــ حقا ؟

ــ لا تعرف المهادنة ولا الحلول الوسطى ، تعمل بأعصابك ، بنخاع عظامك ، تقاتل قتالا عنيفا كأن أى مسألة انما هى مسألة حياة أو موت !

ــ أجل ، هذا حق .

تقبل النقد ببساطة ، بصدر واسع ، انداحت موجته فى محيط من السعادة لا محدود . وغالب ضحكة صافية بريئة حتى

غلبها أن يفسرها الآخر تفسيرا بعيدا عن بواعثها النقية . وتساءل :

ـ اذن فأنت ترى أنه لابد من قدر من التوازن أمام الأحداث ؟

ـ طبعا ، أذكر على سبيل المثال مناقشتك أول أمس عن العنصرية ، ان رأينا فيها واحد ، وهى جديرة بالحماس لحد الغضب ، ولكن أى نوع من الغضب ؟ غضب فكرى ، غضب تجريدى لدرجة ما ، وليس الغضب الذى يزلزل الأعصاب ويفسد الهضم ويهبط بنبض القلب ، أليس كذلك ؟

ـ واضح ومفهوم ..

وغالب ضحكة ثانية حتى غلبها . قلبه يأبى أن يفرط فى قطرة واحدة من أفراحه . العنصرية .. فيتنام .. أنجولا .. فلسطين .. أى مشكلة .. عجزت جميعا عن اقتحام حصن السعادة الذى يطوق قلبه . لدى تذكر أى مشكلة يقهقه قلبه . انه سعيد . سعادة جبارة . مستهينة بكل تعاسة ، باسمة لأى شقاء ، تريد أن تضحك ، أن ترقص ، أن تغنى ، وأن توزع ضحكاتها ورقصاتها وأغنياتها على مشكلات العالم .

وضاق بحجرته فى الجريدة ولم يجد أى رغبة فى العمل ، عاف مجرد التفكير فى يومياته وعجز عجزا تاما عن استنزال عقله من معتصمه فى ملكوت السعادة . وكيف يتأتى له أن

يكتب عن غرق الترولللى باس فى النيل وهو ثمل بهذه السعادة المخيفة ؟ . أجل انها لمخيفة . كيف لا وهى بلا سبب ، عنيفة لدرجة الانهاك ، مشلة للارادة ، فضلا عن أنها ما زالت تصاحبه نصف نهار دون أن تخف حدتها درجة واحـــدة ؟ ! . ترك الأوراق بيضاء وراح يقطع الحجرة ذهابا وايابا وهو يضحك ويفرقع بأصابعه ..

وساوره شىء من القلق . لم يغص القلق فى أعماقه فيفسد سعادته ولكنه تردد فوق سطح العقل كفكرة مجردة . وخطر له أن يستحضر مآسى حياته ليمتحن أثرها فى سعادته لعلها تعيده الى توازنه أو تطمئنه فى الأقل الى أن سعادته قابلة للفتور . تذكر على سبيل المثال وفاة زوجه بكافة ظروفها وملابساتها فماذا حدث ؟ . تراءى له الحدث سلسلة من الحركات بلا معنى ولا تأثير كأنه حدث امرأة أخرى ، زوج رجل آخر ، وقع فى عصر من عصور التاريخ البعيدة ، بل لم يخل من أثر سار ، داع للابتسام ، بل مثير للضحك ، وما تمالك أن ضحك ، واذا به يقهقه ها ... ها .. ها ..

تكرر ذلك وهو يتذكر أول خطاب جاءه من ابنه معلنا عن رغبته فى الهجرة الى كندا ، أما عن قهقهاته وهو يستعرض مآسى العالم الدامية فلولا سمك جدران حجرته لجذبت اليه العاملين فى الجريدة والسائرين فى الطريق . لم ينك شىء من

مناعة سعادته • لاطمته ذكريات الأحزان كما تلاطم أمواج البحر المستلقي فوق رمال الشاطيء تحت الشعاع الذهبي • وغادر الجريدة دون أن يكتب كلمة معتذرا في ذات الوقت من عدم حضور مجلس الادارة • وهجع الى فراشه ـ كالعادة ـ عقب الغداء ولكنه لم ينم • بل شعر أن النوم مستحيل • ليس ثمة ما يبشر باقترابه ولو على مهل • انه يثوى في مقام مشتعل متوهج يضج باليقظة والأفراح ، لابد له من هدوء وسكينة وشيء من فتور الحواس والأعضاء وأين منه ذلك ؟ • وضاق بالرقاد فغادر فراشه وراح يدندن وهو يتمشى في مسكنه • وقال لنفسه انه اذا استمرت هذه الحال فسيتعذر عليه النوم كما تعذر عليه العمل أو الحزن • وأزف موعد ذهابه الى النادي ولكنه رغب عن لقاء أي صاحب • ماذا يعني تبادل الرأي في الأمور العامة والهموم الشخصية ؟ ! • وكيف يكون الرأي فيه اذا وجدوه يضحك من كل كبيرة وصغيرة ؟• ماذا يقولون ؟ ، كيف يتصورون الأمر ؟ ، كيف يفسرونه ؟ • كلا لا حاجة به الى أحد ، ولا رغبة عنده للسمر ، عليه أن يخلو الى نفسه ، أن يمشي طويلا ليتخلص من بعض فائض حيويته ، وأن يفكر في أمره ، ماذا حل به ، كيف دهمته هذه السعادة العجيبة ، وحتى متى يحملها فوق كتفيه ، وهل تصر طويلا على حرمانه من عمله وأصحابه ونومه وراحة باله ؟ ! ، هل يستسلم

لها ، هل يترك نفسه للتيار يعبث به كيف شاء هواه ؟ ، أو أن عليه أن يلتمس لنفسه مخرجا ، بالفكر أو بالعمل أو بالمشورة ؟.

★★★

وقد شعر بالحرج وهو يدعى الى حجرة الكشف بعيادة صديقه الباطنى الكبير . وشمله الطبيب بنظرة باسمة ثم قال :

ــ لا يبدو عليك أنك تشكو المرض ؟

فقال له بصوت متردد :

ــ لقد جئتك لا لأنى مريض ولكن لأننى سعيد !

فنظر فى أعماق عينيه متسائلا فقال مؤكدا :

ــ أجل ، لأننى سعيد !

مضت فترة صمت مشحونة بالقلق من ناحية والتساؤل والدهشة من الناحية الأخرى .

ــ احساس عجيب لا يمكن تعريفه بصفة أخرى ولكنه جد خطير ..

ضحك الطبيب . مسه مداعبا وهو يقول :

ــ أتمنى أن يكون مرضك معديا ..

ــ لا تأخذ الأمر ببساطة ، انه جد خطير كما قلت لك واليك قصته .

وقص عليه قصته مع السعادة منذ استيقاظه صباحا حتى اضطر الى زيارته .

ـ ألم تتناول مخدرا أو شرابا أو عقارا من العقاقير المهدئة ؟

ـ لا شيء من ذلك مطلقا .

ـ هل صادفك توفيق فى مجال هام مثل العمل .. الحب .. المال ؟

ـ لا شيء من ذلك مطلقا ، ولدى من أسباب الكدر أضعاف ما لدى من أسباب السرور ..

ـ لعلك لو صبرت قليلا ..

ـ صبرت النهار كله ، وأشفقت من قضاء الليل هائما ..

كشف عليه بدقة وعناية وشمول . وقال له وهو يهز منكبيه فى حيرة :

ـ انك مثال جيد للصحة والعافية ..

ـ واذن ؟

ـ يمكن أن أنصحك بتناول منوم ولكن من الأفضل أن تستشير أخصائى أعصاب ..

وتكرر الكشف فى عيادة أخصائى الأعصاب بنفس الدقة والعناية والشمول . وقال له الطبيب :

ـ أعصابك سليمة وبحال تحسد عليها !

فسأله برجاء :

ــ أليس لديك تفسير مقنع لحالى ؟

فهز رأسه نفيا وقال :

ــ استشر طبيب غدد !

وتكرر الكشف لثالث مرة فى عيادة أخصائى الغدد بنفس الدقة والعناية والشمول • وقال له الطبيب :

ــ أهنئك على سلامة غددك !

ضحك • اعتذر عن ضحكه وهو يضحك • وكان الضحك وسيلة للاعراب عن قلقه ويأسه •

غادر العيادة وهو يشعر بأنه وحيد وحيد بين يدى سعادته الطاغية • بلا معين ولا مرشد ولا صديق • واذا به يتذكر لافتة الطبيب التى يراها أحيانا من نافذة حجرته بالجريدة • اجل انه لا يثق فى الأخصائيين النفسيين رغم اطلاعه على مضمون التحليل النفسى • فضلا عن ذلك فهو يعلم بأن حبالهم طويلة وأنهم يلزمون مرضاهم بنوع من المعاشرة الطويلة • وضحك وهو يتذكر طريقه العلاج بالتداعى الحر وما تكشف عنه فى النهاية من عقد • كان يضحك وقدماه تحملانه الى العيادة النفسيه • وتخيل الدكتور وهو يستمع الى شكاته العجيبة من السعادة • هو الرجل الذى اعتاد الاصغاء الى الشاكين من الهستيريا والفصام والقلق الخ ••

ــ الحق يا دكتور انني جئتك لأنني سعيد !

ونظر فى وجه الرجل ليمتحن أثر قوله فيه ولكنه رآه محافظا على هدوئه فباخ بعض الشيء وقال بلهجة اعتراف :

ــ انى سعيد ، فوق ما يتصور العقل ..

وشرع فى قص قصته ولكن الدكتور أوقفه باشارة من يده وقال بهدوئه :

ــ سعادة غامرة ؛ عجيبة ؛ منهكة ..

رمقه بذهول . هم بالكلام ولكن الطبيب سبقه اليه قائلا :

ــ سعادة جعلتك تضرب عن العمل ، تزهد فى الأصدقاء ، تعاف النوم ..

هتف :

ــ أنت معجزة :

فتابع الرجل فى هدوئه .

ــ وكلما ارتطمت بشقاء ما أغرقت فى الضحك ..

ــ سيدى .. أأنت مطلع على الغيب ؟

ابتسم قائلا :

ــ كلا ، لست من ذلك فى شىء ، ولكن عيادتى تستقبل حالة مماثلة مرة على الأقل كل أسبوع !

فهتف :

ــ أهو وباء ؟

ــ لم أقل ذلك ، ولا أزعم أنه أمكن تحليل حالة واحدة حتى الآن الى عناصرها الأولية •

ــ ولكنه مرض ؟

ــ جميع الحالات ما زالت تحت العلاج •

ــ ولكنك مقتنع بلا شك أنها حالات غير طبيعية •• ؟

ــ هو غرض ضرورى للعمل ليس الا ••

فسأله بقلق :

ــ هل لاحظت على أحد منهم أن به خللا أو اضطرابا فى ••

وأشار الى رأسه بخوف ؛ ولكن الدكتور قال بيقين :

ــ كلا ألبتة ، أؤكد لك أنهم جميعا عقــلاء بكل معنى الكلمة ••

وتفكر الدكتور مليا ثم قال :

ــ يلزمنا جلستان فى الأسبوع ؟

فقال بتسليم :

ــ ليكن ••

ــ لا يصح أن تجزع أو أن تحزن ••

الجزع ، الحزن ؟ ! • ابتسم ، اتسعت ابتسامته لغير نهاية ، أفلتت ضحكة منه ؛ وما لبث أن أغرق فى الضحك • صمم على ضبط نفسه ولكن مقاومته انهارت تماما فراح يقهقه عاليا ••

مُعْجِزَة

سرى الدفء فى أطرافه . هفت النشوة الى رأسه . لم يعد فى « فبنيسيا » مقعد واحد خاليا . اختنق المكان بالأنفاس ودخان السجاير . تراءى له وجهه فى أكثر من مرآة . تتابعت على بصره وجوه النساء والرجال والشواء ودوارق النبيذ الأحمر والأبيض وأصص الأزهار وصحاف السلطة الخضراء . كان يجلس وحيدا ، لعله الزبون الوحيد الذى انفرد بمائدته ، وقد ولى الضجر ، وانتعشت روحه ، فتوثب فائض النشاط ينشد متنفسا .

أومأ الى الجرسون فجاءه من فوره ، فسأله :

ــ تعرف السيد محمد شيخون الماوردى ؟

امتحن الرجل ذاكرته قليلا ثم أجاب :

ــ كلا يا سيدى .

ــ انه من زبائن فينيسيا ..

ــ لكنى لم أسمع باسمه من قبل ..

ــ عجيبة !

ــ حضرتك على ميعاد معه ؟

ـ كلا ولكنى أريده لأمر هام ..

ـ سأتحرى لك عنه .

ذهب الجرسون فغاب برهة ثم رجع ليؤكد له أن أحدا من موظفى المحل وعماله لا يعرفه ، أو يسمع باسمه من قبل . تسكره ثم تفرغ لدورق النبيذ الأحمر . راح يبتسم متسليا باستعراض الوجوه والتجسس على المداعبات اللطيفة الخفية .

واذا بصوت يرتفع عناديا : السيد محمد شيخون الماوردى ! التفت نحو مصدر الصوت التفاتة مذهون بالمفاجأة . رأى مدير المحل قابضا على سماعة التلفون وهو يكرر النداء ، وعيناه تنتقلان من ناحية الى آخرى . ولما لم يلب نداءه أحد أبلغ المتحدث فى التليفون ان محمد شيخون الماوردى غير موجود ثم أرجع السماعة الى موضعها .

ابتسم الجرسون اليه وقال :

ـ ثانى شخص يسأل عن نفس الرجل فى ساعة واحدة !

دار رأس الرجل ، لا من النبيد هذه المرة ، ولكن من النداء الذى لم يتوقعه ، من سماعه اسم « محمد شيخون الماوردى » . هو فى الحقيقة لا يعرف أحدا اسمه محمد شيخون الماوردى ، ولا يتصور أن يتسمى شخص به ، وعلى وجه اليقين لم يرد لقاءه كما زعم . أجل قد سأل عنه الجرسون ، ولكنه أراد بذلك أن يسلى وحدته ، أن يعبث عبثا بريئا ، أن يفعل

شيئا لا معنى له ولا ضرر منه ، فقرر أن يسأل الجرسون عن شخص ما ، بأى اسم يرد على ذهنه ، فكان ذلك الاسم الغريب ، الذى لوحظت الغرابة فى اختياره لتتم اللعبة . وكان محتملا أن يخترع اسما آخر ، زيد زيدان زيدون مثلا ، لذلك لم يدهش ألبتة لجهل الجرسون به ، ولكنه ذهل حقا عندما ارتفع النداء به ، ذهل أن يسأل عنه سائل فى هذه الحانة التى لم تسمع به من قبل . كيف حدث هذا وكيف يمكن تفسيره ؟!.

شرب قدحا جديدا وهو يفكر . ان معابثة جرسون ليست بمستحيلة ، ولا ضرر منها ، وهى تسلية لا بأس بها لمن ألحت عليه الوحدة أو ثقل عليه الضجر ، ولكن كيف تم تركيب اسم « محمد شيخون الماوردى » ؟ . محمد اسم شائع يرد على الذهن بسهولة ، أما شيخون فما أغربه من اسم ، أين ومتى سمعه ؟ أتراه قرأه فى كتاب مدرسى قديم ؟ ، ولكن كيف وثب الى خاطره ؟ ، ولماذا ؟ ، وما يقال عنه يقال كذلك عن الماوردى . وباجتماعهما — شيخون والماوردى — يبلغ عسر التركيب الملفق ذروته ، بل اعجازه ، فكيف يتبين بعد ذلك انه اسم رجل حقيقى ، رجل يحتمل انه زار الحانة لأول مرة هذا اليوم ، ثم يطلبه آخر بالتليفون فى نفس الساعة ، ألا يدعو ذلك للدهشة والتأمل ؟ ! .

وشرب قدحه الخامس فتطايرت نشوته مشعشعة بالدهشة والتأمل .

يجدر به منذ الساعة أن يولى نفسه ما تستحق من الاحترام ، أن يتعجب ويتساءل ، أن يحكى الحكاية لكل من هب ودب ، أن يبحث لها عن تفسير . لقد وقعت معجزة ، وقعت ببساطة بين جدران حانة ، وسط السكارى والمعربدين من الجنسين . ولا سبيل — للأسف — لتنبيهم الى مغزاها ، أو التماس تصديقهم لها ، فهم لم يفدوا الى الحانة ليشهدوا معجزة أو ليتأملوا معناها ، سيرمقونه — اذا حدثهم بها — باستغراب ، ثم باستنكار ، وسرعان ما يعرضون عنه راجعين الى لهوهم ، أو يتناولونه بألسنة الهزء والسخرية ، ماذا يريد هذا الرجل ؟ ، لعله لا يملك ثمن طعامه وشرابه ، أو لعله نصاب أو مجنون . محمد شيخون الماوردى ! ؟ ، أسمعتم عن المعجزة الجديدة ؟ ، انه لم يحيى الميت ولم يسر الى المسجد الأقصى ولكنه عرف بالهام خارق أن محمد شيخون الماوردى اسم ، وانه اسم سكير من زبائن فينيسيا ، أرأيتم ؟ ! ، أعرفتم الآن فى أى عصر نعيش ؟ !

ليكن من رأيهم ما يكون فلن ينال ذلك من قيمة المعجزة . ولو عن لأحد أن يعتبرها مصادفة لجاز أن نرجع المعجزات جميعا الى مصادفات ؛ لجاز أن تفسر الخلق بمصادفات لا معنى

لها • ولكن ما عسى أن تكون هذه المعجزة ؟ • نوع من قراءة الغيب ؟ • موهبة غريبة بدأت تعلن عن نفسها ؟ • لقد بلغ الأربعين دون أن يفطن الى موهبته الحقيقية • قنع عمرا طويلا بأن يكون كاتب حسابات ؛ بأن يقتصر عمله على التعليمات المالية ، لأئحة المخازن والمشتريات ، الأوامر المنفذة لها ، الشطب والمراجعة والميزانية والحساب الختامى ، على حين تستقر فى أعماقه موهبة فذة • أن يحمل عبء أسرة ، أن يرضى بالكفاف . أن يعتنق التقشف ، على حين تستكن فى قلبه جوهرة غالية • لندع السكارى جانبا فثمة آخرون سيدهشون لها حقا ، ويقدرونها حق قدرها ، هناك زوجة ، وبعض الزملاء الطيبين ؛ وهناك شيخ الزاوية التى يصلى بها من حين لآخر •

وأفرغ ثمالة الدورق فى القدح الأخير فاقترب الجرسون من مائدته ليكون رهن اشارته • وما ان رآه حتى قال له بلا تدبير سابق :

ــ تعرف زيد زبدان زيدون ؟

فأجاب الرجل وهو يرمقه بدهشة :

ــ كلا يا سيدى ، أهو أيضا من زبائن المحل ؟

ــ أجل •

ــ حضرتك على ميعاد معه ؟

ــ كلا ولكنى أريده لأمر هام أيضا ••



لقد وقعت معجزة ، وقعت ببساطة بين جدران حانة

وغاب الرجل برهة ثم رجع ليؤكد له أن أحدا من موظفى المحل أو عماله لا يعرفه ، أو يسمع باسمه من قبل . شعر — بعد فوات الأوان — أنه تسرع بلا حكمة . ما كان ينبغى أن يتحدى موهبته الوليدة على هذا النحو . من يتصور أن تقع معجزتان فى ساعة واحدة وفى حانة واحدة ؟ ! . واذا فشلت التجربة الثانية كما هو متوقع فهل ينال فشلها من مغزى التجربة الأولى ؟ ! كلا . مهما يكن من أمر فلن يسمح ..

ورأى الجرسون مقبلا نحوه ، فلما بلغ مجلسه قال له :

— تليفون يطلبك ..

تساءل بدهشة :

— لا أحد يعرفنى هنا ، ولا أنت نفسك ، فكيف عرفت أننى الشخص المطلوب ؟

— اتصل صاحب حضرتك بالمدير و ..

قاطعه متسائلا :

— أى صاحب تعنى ؟

— السيد زيد زيدان زيدون !

زلزلته هزة عنيفة فغض بصره ليخفى عينيه عن الجرسون . وتابع الرجل قائلا :

— اتصل بالمدير ، عرفه بنفسه ، وسأله هل يوجد فى الحانة أحد يسأل عنه ؟

لم يجد بدا من الانتقال الى التليفون وهو يتخبط فى ذهوله وارتباكه .

ــ آلو ..

ــ أنا زيد زيدان زيدون .. من حضرتك ؟

ــ انى قادم اليك فى الحال وشكرا ..

هكذا أنهى المكالمة بلباقة دون أن يفطن أحد الى ما دار فيها . وقرر أن يغادر المكان فورا تفاديا من وقوع مضاعفات جديدة . غادره وهو يترنح من الذهول والوجل والفرح .

لم يكن له من حديث فيما تلا ذلك من أيام الا محمد شيخون الماوردى وزيد زيدان زيدون . قال البعض انها مصادفة . مصادفة خارقة ولا شيء وراء ذلك ، وما أكثر المصادفات الخارقة فى دنيانا ، ألا تذكر كيف تزوج رئيس القلم ؟ ، ألا تذكر كيف قتل جارك فى ليلة العيد ؟ ، ألا تذكر كيف تولى وزير وزارة العدل لانطباق اسمه على اسم آخر كان هو المقصود بالوزارة ؟ ! . وقال آخرون انها ظاهرة عجيبة حقا ولكن يمكن اخضاعها للتفسير الطبيعى ، فالأسماء الغريبة مأخوذة من مخزون الذكريات البعيدة ، وغير مستحيل أن الرجلين كانا يجلسان على مقربة منك ، وأن اسميهما لاطما وعيك ــ رغم انشغالك طوال الوقت بدورق النبيذ ــ فلما أغراك العبث بتلفيق اسمين وجدتهما طافيين على سطح شعورك

أو عالقين بمسمعك ، ولا غرابة بعد ذلك فى دعوات التليفون فهى مما تقع كل يوم فى المقاهى والحانات !

اذن فهى اما أن تكون مصادفة خارقة جدا واما أن تكون ظاهرة طبيعية جدا •

ــ لا هذا ولا ذاك أرضاه • انه يطمح الى تفسير جديد يواكب انفعاله المحلق فوق الطبيعة ، تفسير خليق بأن يرفعه درجات ، بأن يغير وجه حياته ، بأن ينتشله من هموم الحياة ومآزقها • ومن حسن الحظ أن كان لشيخ الزاوية رأى آخر • هو وحده الذى استعاده الحكاية مرات • وقرت منه وجهه وهو ينظر فى أعماق عينيه وقال :

ــ أتريد رأيى بالحق والصدق ؟ •• أنت فيك شىء لله !

وامتحن أثر قوله فى وجهه ثم تابع :

ــ لا أعجب لذلك فأنت رجل طيب ، ولا تفوتك صلاة الجمعة ••

وتفكر الشيخ قليلا ثم قال :

ــ ولكن أين اكتشفت الموهبة ؟ ، فى حانة ! ، ألا تدرى ماذا يعنى هذا ؟

ــ كنت اتناول عشائى ليس الا ••

ــ ولو ، انه امتحان وتحذير ••

فسلم برأيه حتى لا يشتت تيار أفكاره فتابع الرجل :

ـــ وهناك معنى لا يجوز أن يخفى عليك ؟

ـــ ما هو يا ترى ؟

ـــ ان من يوهب كنزا فعليه أن يستثمره لخير النـــاس ولخيرة •

وتركه الشيخ لنفسه • روى له بعض سير الأولياء ، ونوه ببعض الكتب ثم تركه لنفسه • وقرر هو أن يبدأ بالمعرفة فراح يطالع الكتب المأثورة • كلفه ذلك مالا ولم يكن يملك فائضا منه ، ومشقة فى الاستيعاب ولم يكن من المدربين على القراءة العسيرة • ومن بادىء الأمر لم يلق من زوجه تشجيعا • الحادثة عجيبة حقا ـــ قالت ـــ ولكنها لا تعنى أكثر من ذلك • مثلها كمثل العجائب الكثيرة التى تقع بين كل مطلع شمس وغروبها • ما كان يجوز أن يجعل منها نادرة فى كل مجلس ، ألا يخشى أن يصبر هو فى النهاية نادرة المجالس ؟ ، وما كان يجوز أن يجعلها شغله الشاغل ، أن يقبع بسببها فى حجرته ليقرأ ويقرأ ، مهملا واجباته الحقيقية فى هذه الحياة • وضرب كفا بكف وهو يقول : هذا هو منطق المرأة ! ، وهل كان ينتظر رأى أفضل من امرأة ؟ ! ، وفضلا عن ذلك كله فان قسوة المعيشة قد أفسدت تفكيرها وألصقتها بتوافه الأرض •

ولكنه عرف سبيله ولن توقفه قوة • هناك أمل ما عند الأفق ، وراء حياته الذابلة التافهة الجدباء ، أمل يعده بالقوة

والنور والامتياز ، سيتحول الرجل المسكين الى شخص نورانى باهر يأتى بالمعجزات وسوف يوارى بعد عمر طويل فى ضريح مبارك .

وازدادت معلوماته يوما بعد يوم ولكنه كان يدرك أن جوهر المسألة لا ينهض على العلم ، وانما على قطع طريق طويلة ، خطوة خطوة ، مقاما فمقاما ، وحالا بعد حال . أين يجد الصبر ؟ ، كيف يسعفه الوقت ؟ ، ومن أين له بالقوة والعزم ؟ . ولكن هل ينسى أن المعجزة قد وقعت فى « فينيسيا » بلا مقدمات ولا تمهيد ، بلا معرفة ولا ثقافة ، وبلاأدنى فكرة عن الطريق ومشاقه ؟ ! . حدث ذلك فعلا ، بعد عمر طويل من الخمول واليأس ، حدث أن تجلت موهبته فجأة فى حانة وهو يشرب النبيذ الأحمر ! . واذن فما عليه الا أن يتابع قراءاته وتأمله ، وأن ينتظر بعد ذلك المعجزات ، وهى آتية لا ريب فيها . وكان عجيبا أن يرتفع صوت زوجه مرة أخرى لينعى عليه كفه عن العمل على الآلة الكاتبة فى غير الأوقات الرسمية لزيادة دخله ، ها هى تفكر فى الآلة الكاتبة وما تدره من قروش فى اليوم غافلة عن همومه الحقيقية ، جاهلة بالحقائق الجدية فى هذه الحياة . ها هى تنعى عليه انزواءه وتأمله ، واهماله أسرته ومظهره ، ووقوفه موقف التسليم وعدم الاكتراث من مضاعفات الفقر التى اجتاحتهم . انه يلقى نعيها بالصمت والصبر

الجديرين به • تاركا الفصل فى القضية للزمن وحده • ستصبح ذات يوم فاذا بها زوجة لولى من أولياء الله الصالحين ، ستطرق أبوابهم رحمة الرحمن ، وسيرتفعون فوق النـــاس درجات ودرجات •

وطال به عهد القراءة والتأمل حتى اقتنع بأنه آن له أن يجرب موهبته •

مضى الى أقرب مقهى من داره متوكلا على الله • سأل الجرسون عن اسم شخص وهمى كما اتفق له النطق به • نفى الرجل معرفته به كما توقع • جلس ينتظر من التليفون أن يخف لنجدته • انتظر حتى ميعاد التشطيب ولكن دون ثمرة •

وتنقل من مقهى الى مقهى • وخطر له أن المعجزة ربما لا تريد أن تتحقق الا فى حانة فراح يطوف بالحانات ولكن بلا جدوى • لم يستسلم لليأس وان شقى بتجاربه وهصرت التعاسة قلبه • وأخيرا قادته قدماه الى حانة « فينيسيا » وكان طيلة الوقت يدور حولها ولا يقترب منها خوفا من اجراء تجاربه فيها اذ خيل اليه أن الفشل فى فينيسيا انما يعنى فشلا نهائيا يسد أبواب الأمل • طلب دورق نبيذ أحمر ، لا ليسكر ، ولكن مجاراة لتقاليد المحل • ومضى يتساءل عما يجدر به فعله • وفيما هو فى حيرته اذ خطر له أن أحد الزبائن سيسقط عن مجلسه ميتا ! • أتكون هذه هى المعجزة المنتظرة ؟ ! • لقد وردت

على ذهنه من تلقاء نفسها ، وهى ليست باسمة ولا خيرة ، ولكنها ستكون معجزة بلا ريب » ولعلها تخفى فى طياتها خيرا غير منظور ولا ملموس • ومضى يجـول ببصره بين الوجـوه الضاحكة متسائلا عن صاحب الوجه الذى ستتحقق ولايته على يديه • وفيما هو يجول ببصره اذ لمح شخصا وهو ينفصل عن مجموعة معربدة ليستقر الى مائدة خالية الى جانبه • جذب سلوكه انتباهه فغلب على ظنه أنه الشخص الموعود • نظر نحوه فرآه يرنو اليه بعينين باسمتين ، بسمة لا تخلو من قحة ، فتوقع أن يمازحه على طريقة السكارى • كلما نظر نحوه طالعته ابتسامته الجريئة فسرعان ما يتحول عنه • ولاحظ الى ذلك أن أصحابه المعربدين يسترقون النظر اليه ــ اليهما على الأصح ــ كأنهم يتابعون مشهدا مثـيرا أو يتوقعـون حدثا يتخذون منه زادا لعربدتهم • نولاه شىء من القلق فصمم على تجاهله ومضى يجول ببصره بين الوجوه • واذا بالآخر يهمس له متسائلا :

ــ لم لا تشرب ؟

ها هو يبدأ لعبته • ليكن على حذر منه • وتجاهله تماما • فعاد الآخر يقول :

ــ كان ينبغى أن نكون أصدقاء منذ زمن بعيد !

انه يستدرجه ليثب من فوقه الى عربدته فليصر على تجاهله ٠

ـ اننى أتذكرك جيدا ، كنت تجلس فى نفس المكان ٠

عم يتحدث السكران ؟ ٠ لو فى المكان مقعد خال لانتقل اليه ٠

ـ كنت ليلتها تشرب وتبتسم ؛ وكنت وحيدا ، أنت دائما وحيد ٠٠

ترى هل شهد ليلة المعجزة ؟ ! ٠ وأخذ يهتم به على نحو جديد ٠

ـ كنت أجلس الى جوارك بين عدد من الأصدقاء ٠

متى يسكت ؟ ٠ متى يذهب ؟ ٠ متى يموت ؟ ٠

ـ وسمعتك تسأل الجرسون عن شخص اسمه ٠٠ اسمه ؟ !

نظر اليه بحركة مفاجئة لا ارادية وقد طفح بصره بالاهتمام ٠

ـ كان اسما غريبا ومضحكا كأنه اسم رجل من الجاهلية !

غلب على أمره فخرج من صمته متسائلا :

ـ محمد شيخون الماوردى ؟

ـ عليك نور ، محمد شيخون الماوردى ٠٠

حدجه باهتمام ، متلهفا على مزيد ، ولكن الآخر مد ساقيه ولاذ بالصمت •

خانه الصبر فسأله :

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ لا شيء ••

تحول عنه متظاهرا بعدم الاكتراث • لزم الآخر الصمت دقائق ثم قال :

ـ لا تتظاهر باللامبالاة •

ـ ليس الأمر بذى بال •

ـ بل انك تود أن تعرف ، بخصوص التليفون مثلا ؟ !

دق قلبه بعنف ولم يتمالك أن يسأله :

ـ ماذا عن التليفون ؟

ضحك ضحكة قصيرة وقال :

ـ سمعتك تسأل الجرسون عن محمد شيخون الماوردى وهو يعتذر عن عدم معرفته ، وقع الاسم من آذاننا ـ أنا وأصدقائى ـ موقع الدهشة ، كنا سكارى كما تعلم ، حسن •• من يكون شيخون هذا ؟ ، وهل ثمة مطابقة بين اسمه وشخصه ؟ ، عندك فكرة طبعا عن عبث السكارى ، قررنا البحث عنه ، بأى ثمن أردنا أن نرى صاحب الاسم العجيب ••

هز رأسه يستحثه على الاستمرار فقال الآخر :

ــ ما العمل ؟ • تطوعت لتنفيذ فكرة لا بأس بها ، وهي أن أتسلل الى المقهى المجاور للحانة ، هناك طلبت رقم فينيسيا ، ورجوت المدير أن يدعو الى التليفون محمد شيخون الماوردى .

ــ لا !

ندت عنه كزمجرة منطلقة بشظايا الحنجرة • ذهل الآخر فتساءل :

ــ مالك ؟ !

ــ أنت !

انقطع صوته مختنقا بشدة انفعاله :

ــ أستاذ . هل أخطأت ؟ ، ماذا حل بك ؟ !

رماه بنظرة غاضبة كاسرة متحفزة قاتمة من اليأس • انتفخ وجهه ، احتقن بدم أسود ، برزت عروق الجبين نافرة وانعقدت كدمات زرقاء • أراد أن يتكلم ، أن ينفجر صارخا ، ولكن شفتيه انطبقتا كأنهما ألصقتا بالغراء • انه يصارع قوة خفية ، يدافع هجمة ضارية غير مرئية ، يقاوم زحفا خانقا • وبسرعة مذهلة قبض على دورق النبيذ وقذفه به بأقصى قوة فأصاب رأسه فوق الجبهة • تحطم الدورق • سال النبيذ على وجهه وعنقه ممزوجا بالدم • صرخ الرجل ألما وغضبا •• انقض عليه وهو يترنح يريد أن يقبض على عنقه ، فتناول الآخر الشوكة وطعن بها عنقه بكل قوة يأسه • انكفأ فوق المائدة وهو يصرخ ، ثم تهاوى على الأرض ••

المَجنُونَة

ما أكثر المعارك فى حارتنا . للسبب الخطير والتافه على السواء تنشب المعارك فى حينا . ما من ساعة من نهار أو ساعة من ليل الا وتتطاير شتمة أو سخرية أو طوبة ، يتشاجر اثنان أو أكثر . يستوى فى ذلك الصغار والكبار . والويل لنا اذا طالت معركة فاتسعت دائرتها وانضم الى كل شخص فريق فانتشرت كالنار والتهمت الأرجاء . واذا كانت المعارك لا تدوم أو لا يمكن أن تدوم فان رواسبها لا تزول أبدا ، ومضاعفاتها تستفحل يوما بعد يوم ، حتى أمسى جونا مشحونا بالتربص والحذر والكراهية والخوف . جو سريع الاشتعال قابل فى أى لحظة للانفجار ، ربما لمجرد نكتة أو غمزة عين أو نحنحة ..

من بين المعارك التى ابتلينا بها برزت معركة بروزا داميا لا ينسى . معركة غريبة فظيعة غامضة غطت على جميع ما سبقها أو لحق بها من معارك ، فلذلك سميت بالمجنونة ، وجرت فى تاريخنا أسطورة من الأساطير .

فى ذات يوم اجتاحت الحارة معركة شاملة . اشترك فيها



اجتاحت الحارة معركة شاملة

جميع من اتفق وجودهم على أرضها من عاملين وعاطلين • تضاربوا بادىء الأمر بالأيدى والأرجل والرءوس • وكلما جذبت اليها أحدا بدافع من حب الاستطلاع أو الإطمئنان على عزيز أو المصالحة بين متخاصمين ، وجد نفسه بعد حين مشتركا فيها بطريقة أو بأخرى • واشتد القتال وتضخم ، واستعمل وسائل جديدة كالطوب والكراسى والعصى والآلات الحادة • وقد استمرت حوالى الساعتين قبــل أن يترامى نبؤها الى القسم ، ولما جاء رجال الأمن وجدوا أرض الحارة مغطاة بالقتلى والمحتضرين والمصابين اصــابات قاتلة ، وقد علا الصوات واحتدم اللطم • لم يسلم رجل واحد ، وما من أسرة الا وفقدت رجلا أو أكثر • وكان للخبر وقع شديد لدى الجهات المسئولة ، وبمجرد نشره فى صحف تلك الأيام مصحوبا ببعض الصور الدامية اهتز الرأى العام هزة عنيفة حزينة غاضبة • ووقف رجال الأمن حيارى • هل تقتصر مهمتهم على دفن الموتى ؟ ! • ما السبب ، من البادىء ، من المسئول ، ومن عسى أن يجيب بعد أن سوى الموت بين المعتدى والمعتدى عليه ، وحتى متى ترتكب هذه الفظائع بلا خوف أو اكتراث أو تقدير للعواقب ؟ !

ــ علينا أن نصل الى الحقيقة مهما كلفنا الأمر •

ولكن أى جدوى تنتظــر من وراء ذلك ، وأى جديد

هناك ؟ ! • ثمة عداوات قديمة وجديدة ، ومنافسـات على الفتونة ، ولكن قد هلك الجميع بلا استثناء ، لم يبق شخص واحد من الذين اشتركوا فى المعركة ، لم ينج الا من كان يسعى وراء رزقه خارج الحارة ، ولدى أوبتهم اكتشف كل أنه فقد ابنا أو أبا أو عما أو خالا •

ــ يمكننا أن نتصور كيف نبدأ المعارك وكيف تتسع ، ولكن من المحرك الأول ؟ ، من المسئول ؟

قالت امرأة :

ــ خرجت من بيتى لأرمى ماء الغسيل فى الحارة فرأيت العجل يجرى وهو يحلف بأيمانه ودينه لينتقمن ••

ينتقم ممن ولمن ؟ • لم تسمع أكثر من ذلك ، عادت الى حجرتها ، وبعد وقت قصير ارتفعت ضجة كبيرة •

ــ نظرت من الشباك فرأيت عددا من الرجال لا يعد ولا يحصى ، يضربون ويضربون ويسقطون !

ــ أرأيت العجل بينهم ؟

ــ كان يقاتل والدماء تغطى وجهه وصدره ••

ــ ومن الآخر الذى قاتله ؟

ــ كان من المستحيل أن أعرف من مع من أو من ضد من ••

حسن • محتمل أن تكون المعركة قد بدأت بالعجل ، ومحتمل أن تكون بدأت قبل ذلك وأنه جرى لينتقم للجانب المعتدى

عليه ، ولكن من هو العجل ؟ • هو دقاق طعمية ، ومن رجال عجرمة : فهل ترجع المعركة الى العداوة التقليدية بين رجال عجرمة ورجال المناديلى ؟ ! ولكن شهد كثيرون بأن العلاقات بين عجرمة و المناديلى كانت تنعم بما يشبه الهدنة ، وان يكن من المستحيل التأكد من هذه النقطة بعد أن قتل العجل وعجرمة والمناديلى جميعا •

— اذن من هم الأشخاص الذين يخاطر العجل بروحه للانتقام لهم •• ؟

أجاب كثيرون :

— شقيقه حتحوت •

وتبين أنه كان بباع بطاطة وقد قتل أيضا فى المعركة •

— فمن هم أعداؤه ؟

— جميع رجال المناديلى وقد قتلوا عن آخرهم ••

وسئل من ضحايا المعركة من استطاع أن يتكلم قبل أن يسكته الموت • قال أحدهم :

— رأيت صديقا فى المعركة فانضممت اليه ولكنى لم أعرف أسبابها •

وقال ثان :

— ظننت أن المعركة تدور بين عجرمة والمناديلى فانضممت الى رجال المناديلى بطبيعة الحال ••

وقال ثالث انه اشترك فى المعركة لأنه لا يستطيع أن يشهد معركة ويقاوم اغراء الاشتراك فيها .

وقال رابع انه لمح بين المتعاركين غريما له فى حب امرأة فهاجمه بلا تردد . وخامس قال انه كان يغادر بيته فأصابته طوبة عمياء فراح يرمى بالطوب على غير هدى حتى أصابته سكين . وهكذا وهكذا حتى تبين أن شخصا هاجم آخر لا لشىء الا أنه يتشاءم برؤيه وجهه . وعلى كثرة ما قيل فان التحقيق لم يفد منها شيئا ذا بال . ظل دور العجل محوطابالغموض وظلت الأسباب الأولى للمعركة مجهولة .

— ألم ير أحدكم العجل وهو يقتل أحد ضحاياه أو عندما قتل ؟

قالت امرأة :

— رأيت العجل وهو يقتل القللى .

وقالت أخرى :

— رأيت العجل وهو يقع قتيلا بيد دقلة ..

اذن فالعجل قد قتل القللى ، ودقلة قد قتل العجل . وليس عجيبا أن يقتل دقلة ، وهو من رجال المناديلى — رجلا كالعجل من رجال عجرمة ، ولكن لماذا قتل العجل القللى وكلاهما من رجال عجرمة ؟ !

وتحاور المحققون :

ـــ انه اللغز !

ـــ انه اللغز !

ـــ أجل ولكن قد نجد فى حله الحل الأخير للمسألة ٠٠

تركز اهتمام الباحثين على القللى ، فدلت التحريات على وجود شقيق له على قيد الحياة يدعى الزين ٠ وسئل الزين عن علاقة شقيقه القللى بالعجل فأجاب ببساطة :

ـــ ثلاثتنا من رجال عجرمة وكنا أصدقاء ٠٠

ـــ ألم تتغير علاقتهما فى الأيام الأخيرة ؟

ـــ كانا صديقين حتى اللحظة التى تركت فيها الحارة فى صباح اليوم المشئوم !

ثم أدلى بما لديه من معلومات فقال :

ـــ خرجت فى الصباح الباكر بعربتى لأبيع الفول ، وعادة ما يذهب معى حنحوت شقيق العجل وهو بياع بطاطة ، فنسرح معا أو نستريح من تجوالنا معا ٠٠

ـــ متى علمت بالمعركة ؟

ـــ رجعت الى الحارة ظهرا ، كان كل شىء قد انتهى ، ووجدت أخى والعجل وحنحوت بين القتلى ٠

ـــ قلت ان حنحوت كان معك فكيف قتل فى المعركة ؟

ـــ وقع له حادث اضطره الى العودة مبكرا عن ميعاده ٠

ـــ كيف كان ذلك ؟

ـــ من عاداتنا ـــ أنا وهو ـــ أن نتسلى فى أوقات الفراغ بالمصارعة . تصارعنا كالعادة واذا به يسقط مغمى عليـــه ، رششت الماء على وجهه حتى أفاق ، وعند ذاك اعترف لى بأنه مسطول وانه يشـــعر بخور ، فلذلك رجع الى الحارة وهو لا يدرى انه ذاهب الى حتفه !

ما زال اللغز لغزا . لم قتل العجل القللى وهو صديقه وكلاهما ينتميان الى فتونة واحدة ؟

هل كان هو الرجل الذى أقسم العجل لينتقمن منه أو أن القللى تصدى للدفاع عن الآخر الذى اندفع العجل للانتقام منه ؟ ! .

وتطوع للشهادة رجل ليس فى الأصل من أهـــل الحارة ولكنه من زبائن العجل ، قال :

ـــ ذهبت الى دكان العجل لأدق طعمية فرأيته يغادرها مسرعا غاضبا وهو يهتف : « بقتلك المجرم ! .. الويل له » !

ها هى شهادة أخرى تؤكد شهادة المرأة الأولى وتضيف اليها تفاصيل جديدة . العجل تبعا لهذه الشـــهادة يريد أن ينتقم لشخص قد قتل . شخص قتل قبل أن تبدأ المعركة . ربما فى اليوم السابق لها ، أو فى أثناء الليل . وتابع الشاهد المتطوع قائلا :

ـــ جلست أنتظر فى الدكان دقائق ثم حدثنى قلبى بأن

أحداثا ستقع ، وكنت أعرف كيف تشتعل النار فى الحارة لأوهى الأسباب فذهبت مؤثرا السلامة •

ــ ألم تر أحدا فى الدكان ؟

ــ رأيت غلاما فى العاشرة يقف فى مدخلها فسألته عن المكان الذى ذهب اليه العجل ولكنه تراجع كالخائف ثم جرى بسرعة حتى اختفى ••

وعرض عليه جمع من غلمان الحارة ولكنه لم يتعرف على الغلام المعنى • واتجه البحث الى معرفة القتيل الذى هب العجل للانتقام له ، من كان ذلك الرجل ؟ ، هل قتل أحد من أهل الحارة أو من أصدقاء العجل قبيل المعركة ؟ • كلا ، لم يقتل أحد من هؤلاء قبيل المعركة سواء بساعات أو بأيام ! •

ــ أنظل ندور وندور حول أنفسنا دون أن نتقدم خطوة واحدة ؟ !

واذا بالتحريات الدقيقة تقطع بأن المحور الذى دارت حوله المعركة كان فى الخرابة الواقعة لقاء مقلى القللى • واذن فمن المحتمل أن العجل جرى الى القللى فى المقلى ليعتدى عليه فنشبت معركة • واتسعت مندفعة نحو مجالها الطبيعى فى الخرابة • واذن فلعل القللى هو الذى قتل الشخص الذى جاء العجل للانتقام له ، ولكن كيف يؤخذ بهذا الاستدلال ولم يثبت بعد مقتل أحد قبل المعركة ؟ !

ـــ لعلنا نقترب من الحقيقة وما علينا الا أن نعثر على الخيط الذى يجمع أشتاتها ••

لقد علم العجل بأن القللى قتل ، أو حرض على قتـــل ، شخص ما عزيز عليه ، فغادر دكانه الى المقلى لينتقم من قاتله • لم يجد المكان خاليا ولا القللى لقمة سائغة فتدخل كثيرون بينهما • بدأت معركة ، اشترك فيها كثيرون لأسباب شتى ، انجر اليها عن سوء نية أو سوء فهم رجال عجرمة والمناديلى ، ثم سرعان ما اجتاحت الحارة كلها حتى أهلكت جميع من اشتركوا فيها • حـــدث ذلك كله انتقـــاما لمصرع شـــخص مجهول لم يثبت مصرعه حتى الآن !!

وتحاور رجال الأمن :

ـــ ولكن من الغلام الذى كان فى دكان العجل ؟

ـــ لقد جىء بغلمان كثيرين فلم يتعرف الشاهد على أحد منهم •

ـــ لعله غلام غريب عن الحارة ؟

ـــ ولعله الخيط الذى نبحث عنه ؟

ـــ ماذا كان يفعل فى الدكان ؟

ـــ ولماذا جرى كالخائف ؟ !

وأكد تلك الظنون رجل من غير أهل الحارة ولكنه يبيع الكنافة فى المنعطف الموصل اليها •

قال فى شهادته :

ــ رأيت غلاما فى العاشرة يجرى نحو الحارة وهو يصيح يا عم يا عجل •• حتحوت أخوك قتل !

انفجرت تلك الشــهادة كالقنبلة • جمعوا غلمان الحارة وعرضوهم عليه ولكنه لم يتعرف على الغلام المقصود • ماذا يعنى قول الغلام ؟ • ان حتحوت شقيق العجل قد قتل حقا ولكن فى المعركة • لقد جاء والمعركة مستعرة بشهادة شهود كثيرين • ثم رأى جثة أخيه العجل ، ولما علم بأن قاتله هو دقلة جمل عليه حتى قتله ثم قتل بعد ذلك ! •

وسئل بياع الكنافة :

ــ أرأيت الغلام قبل المعركة أم فى أثنائها ؟

ــ قبل المعركة ••

ــ أتستطيع أن تعطينا فكرة عن الوقت الذى مضى بين رؤية الغلام وبدء المعركة ؟

ــ حوالى ربع ساعة ••

وتحاور رجال الأمن •

ــ لا شك أن ذلك الغلام هو الذى أشعل الفتيل !

ــ بلى ، جرى الى العجل فأخبره بمقتل شقيقه !

ــ ولكن شقيقه كان فى ذلك الوقت حيا يرزق !

ــ كيف ولم كذب الغلام ؟ !

ـــ لعل شخصا حرضه على ذلك لغرض فى نفسه ؟

ـــ ولكن أين اختفى ؟

ـــ لعله ليس من غلمان هذه الحارة ..

ـــ ولا شك أنه نفس الغلام الذى رئى فى دكان العجل ..

طال التحقيق وتشعب ولكنه لم ينته الى نتيجة مريحة أو مقنعة . وأخيرا قال المأمور لرجاله وقد أنهكهم البحث والتفكير :

ـــ لقد راجعت التحقيق والتحريات فاقتنعت بأن الحقيقة أعلنت منا الى الأبد ولكنى أتخيل أنها ربما جرت على الوجه الآتى .

الزين (شقيق القللى) وحتحوت (شقيق العجل) سرحا معا كعادتهما كل يوم ، وكعادتهما أيضا تصارعا فى وقت الفراغ طلبا للترويح عن النفس ، أجتمع حولهما نفر من الغلمان ليتفرجوا على المصارعة ، سقط حتحوت مغمى عليه من أثر المخدر الذى تعاطاه ، رآه الغلام المجهول فاعتقد أنه قتل فى المصارعة ، جرى الى الحارة ليبلغ العجل ، أخبره أن الزين قتل أخاه . صدق العجل الخبر دون أن يتثبت منه فوقع فريسة للغضب والجنون ، غادر دكانه لينتقم لأخيه ، ولما لم يكن له من سبيل الى القاتل الذى حدس هربه فقد قصد الى شقيقه القللى ليصب عليه انتقامه . تعارك الرجلان ، انضم الى كل

رجال من صحبه ، ظن رجال عجرمة والمناديلي أنهم المدعوون للمعركة فرموا بأنفسهم فيها ، ثم اشترك كثيرون لأسباب شخصية أو عرضية حتى شملت المعركة الحارة كلها ، ثم كان ما كان من هلاك جميع من اشتركوا فيها !

دهش رجال المأمور وهم يصغون اليه ، ومع أن تخيله لم يكن الا فرضا الا أنه جاء مقنعا ورابطا بين الحقائق المتناثرة ؛ ويمكن على أساسه حل لغز المعركة .

ــ يا له من خيال صادق !

ــ واذن هلكت الحارة لغباء غلام !

ــ أو غباء رجل وهو الأرجح !

ــ بل هو غباء الحارة وهو الأصدق !

وجرى خبر المعركة مجرى الأمثال والأساطير . وركز الرواة على دور الغلام المجهول فيها لا لاطمئنانهم الى حقيقته ولكن لطرافته قبل كل شيء . أما سرها فقد ضاع الى الأبد ، مخلفا وراءه ذكرى مغلفة بالسواد والأحزان .

خمارة القط الأسود

كانوا يرددون أغنية جماعية عندما ظهر فى الباب رجل غريب •

لم يكن بقى فى الخمارة كرسى واحد خاليا •؛ وهى — الخمارة — عبارة عن حجرة مربعة تقوم فى أسفل عمارة عتيقة بالية • تضاء نهارا وليلا لقتامة جوها المدفون • وتطل على حارة خلفية بنافذة وحيدة من خلال قضبان حديدية • طليت جدرانها بلون أزرق فاتح يرشح رطوبة فى مواضع شتى على هيئة بقع غامقة • ويفتح بابها على ممشى ضيق طويل يمتد حتى الشارع ، وعلى جانب منه تصطف براميل النبيذ الجهنمى • زبائنها أسرة واحدة تتوزع فروعها على الموائد الخشبية العارية ، منهم من يرتبطون بأسباب الصداقة أو الزمالة ؛ وجميعهم يتآخون بوحدة المكان والمعاشرة الروحية ليلة بعد أخرى ، ويجمعهم جامع السمر والنبيذ الجهنمى •

كانوا يرددون أغنية جماعية عندما ظهر فى الباب رجل غريب •

ليس بالنادر أن يتلقى أحدهم هذا السؤال :

ـــ لماذا تفضل خمارة القط الأسود ؟

النجمة اسمها الحقيقى ، ولكنها تسمى اصطلاحا بخمارة القط الأسود ، نسبة لقطها الأسود الضخم ، معشوق صاحبها الرومى الأعجف المدبب وصديق الزبائن وتعويذتهم .

ـــ أفضل خمارة القط الأسود لجوها العائلى الحميم ، ولأنك بقرش أو بقرشين تستطيع أن تحلق بلا أجنحة ..

يتنقل القط الأسود من مائدة الى مائدة ، وراء لبـــاب الخبز وفتات الطعمية والسمك ، يتلكأ عند الأقدام ويتمسح بالسيقان بدلال من بطرته النعمة ، وصاحبه الرومى يعتمد الطاولة بمرفقيه رانيا للاشىء بنظرة ميتـــة ، أما الجرســـون العجوز فيدور بالنبيذ أو يملأ الأكواب الصغيرة المضلعة من صنابير البراميل .

ـــ وهى أرحم خمارة بذوى الدخول الثابتة ..

وتتبادل الملح والنوادر ، وتتوادد النفوس ببث الشكايات ، ويترنم صاحب الصوت السالك بأغنية ، فيطفح المكان المدفون الرطب بالسعادة .

ـــ لا بأس من أن ننسى ساعة من الزمان كثرة العيال وقلة المال .

ـــ وأن ننسى الحر والذباب ..

ـــ وننسى أنه يوجد عالم خارج القضبان ..

ـــ وأن ننعم بملاطفة القط الأسود •

فى ساعات اللقاء تصفو نفوسهم ، تفيض بالحب لكل شىء ، يتحررون من التعصب والخوف ، يتطهرون من أشباح المرض والكبر والموت ، يتصورون فى صورة منشودة ، يسبقون الزمن بقرون كاملة •

وكانوا يرددون أغنية جماعية عندما ظهر فى الباب رجل غريب •

نظر الرجل الغريب فى أرجاء المكان فلم يجد مائدة خالية ، اختفى عن الأنظار فى الممشى حتى ظنوا أنه ذهب الى الأبد ، ولكنه رجع حاملا كرسيا من القش المجدول ـــ كرسى الخواجا الرومى نفسه ـــ ثم وضعه لصق الباب الضيق وجلس •

جاء متجهما وعاد متجهما ثم جلس متجهما • لم ينظر نحو أحد ، تجلت فى عينيه نظرة حادة صارمة ولكنها غائبة ، لائذة بعالم بعيد مجهول ، لا ترى أحدا ممن يملئون المكان الصغير • منظره فى جملته قاتم وقوى ومخيف كأنه مصارع أو ملاكم أو رافع أثقال • وملابسه متوافقة تماما مع قتامته ، ومؤكدة لها بالبلوفر الأسود والبنطلون الرمادى الغامق والحذاء المطاط البنى • لم يشرق فى ذاك البناء المظلم الا صلعة مربعة توجت رأسا كبيرا صلبا •

أطلق حضوره غير المنتظر شحنة كهربائية نفذت الى أعماق



لم يشرق فى ذلك البناء المظلم
الا صلعة مربعة توجت رأسا كبيرا صلبا

الجالسين . سكت الغناء ، انقبضت الأسارير ، خمد الضحك ، ترددت الأبصار بين التحديق فيه وبين استراق النظر اليه ، ولكن ذلك لم يدم طويلا . أفاقوا من صدمة المفاجأة وهول المنظر . أبوا أن يسمحوا للغريب بافساد سهرتهم . وتداعوا باشارات فيما بينهم للاعراض عنه واستئناف لهوهم . عادوا من جديد الى السمر والمزاح والشراب ، ولكنه فى الحقيقة لم يغب عن وعيهم ، لم ينجحوا فى تجاهله تماما ، وظل يثقل على أرواحهم كالضرس الملتهب . وصفق الرجل بقوة مزعجة فجاءه الجرسون العجوز وحمل اليه النبيذ الجهنمى ، وسرعان ما أفرغه فى جوفه ، وألحق به آخر ، ثم أمر بأربعـــة أكواب دفعة واحدة وراح يشرب كوبا فى اثر كوب حتى أتى عليها ، ثم جدد الطلب . عاودهم الاحساس بالرهبة والخوف ، ماتت الضحكات على شفاههم ، تراجعوا الى الصمت والوجوم . أى رجل هذا ! . ان ما شربه من النبيذ الجهنمى يكفى لقتل فيل ، وها هو يجلس كالحجر الصلد ، لا يتأثر ولا ينفعل ، ولا تنبسط له أسارير ، أى رجل هذا !

واقترب القط الأسود منه مستطلعا ، انتظر أن يرمى له بشىء ، ولما لم يشعر له بوجود مضى يتمسح بساقه ، ولكنه ضرب الأرض بقدمه فتقهقر القط ، متعجبا ولا شك لهـذه المعاملة التى لم يعامل بها من قبل . وحول الرومى رأسه نحو

الحجرة بوجهه الميت ، رمق الغريب مليا ، ثم عاد ينظر الى لا شيء • وخرج الغريب عن جموده • حرك رأسه بعنف يمنة ويسرة • عض على أسنانه • جعل يتحدث بصوت غير مسموع ، مع نفسه أو مع شخص فى مخيلته • تهدد وتوعد وهو يحرك قبضته • استقرت فى جنحة وجهه أقبح صورة للغضب • استفحل الصمت والخوف •

وسمع صوته لأول مرة ؛ صوت غليظ كالخوار ، تردد بقوة وهو يقول :

ــ اللعنة •• الويل ••

وكور قبضته وتابع :

ــ ليأت الجبل •• وما وراء الجبل ••

وصمت مليا ثم عاد يقول بصوت انخفض درجة :

ــ هذه هى المسألة بكل بساطة وصراحة ••

اقتنعوا بأنه لم يعد للبقاء من معنى • قضى على السهرة بالفشل ولما تكد تبدأ • فليذهبوا فى سلام • تم التفاهم فيما بينهم بالنظرات ثم تفشت فيهم حركة تأهب وقيام • عند ذاك تنبه اليهم لأول مرة • خرج من غيبوبته • نقل عينيه بينهم فى تساؤل • أوقفهم باشارة وهو يسأل :

ــ من أنتم ؟

يا له من سؤال جدير بالتجاهل والاحتقار ولكن أحدا لم

يفكر فى تجاهله أو احتقاره • وأجاب أحــدهم متشــجعا بكهولته :

ــ نحن زبائن المحل من قديم ••

ــ متى جئتم ؟

ــ جئنا مع المساء ••

ــ اذن كنتم هنا قبل حضورى ؟

ــ نعم ••

أشار اليهم أن يعودوا الى مجالسهم ، ثم قال بحزم صارم :

ــ لن يغادر المكان أحد ••

لم يصدقوا آذانهم • عقدت الدهشة ألسنتهم • ولكن أحدا لم يجرؤ على الرد عليــه بما يســتحق • وقال الكهل بهدوء مناقض تماما لمشاعره :

ــ ولكننا نريد أن نذهب •

فرماهم بنظرة وعيد كالحجر وقال :

ــ ليتقدم المفرط فى عمره !

لم يوجد بينهم من يفرط فى عمره • تبادلوا نظرات ذاهلة حائرة • وتساءل الكهل :

ــ ولكن ما وجه اعتراضك على ذهابنا ؟

هز رأسه بقسوة ساخرة وقال :

ـــ لا تحاولوا خداعى ، لقد سمعتم كل شىء ••

قال الكهل بعجب :

ـــ أؤكد لك أننا لم نسمع شيئا ••

فصاح بغضب :

ـــ لا تحاولوا خداعى ، لقد عرفتم الحكاية !

ـــ لم نسمع شيئا ولم نعرف شيئا !

ـــ كذابون مخادعون !

ـــ يجب أن تصدقنا ••

ـــ أصدق سكيرين معربدين ؟ !

ـــ انك تسب أناسا أبرياء وتهدر كرامتهم !

ـــ ليتقدم منكم المفرط فى عمره •

وضح لهم أن الموقف لا يعالج الا بالقوة ، وأنه لا قوة لديهم • واضطروا تحت تأثير نظراته المخيفة الى الجلوس • رجعوا الى مقاعدهم بغضب مكتوم ومهانة لم يجربوها من قبل • وسأله الكهل :

ـــ وحتى متى نبقى هنا ؟

ـــ حتى يجىء الوقت المناسب •

ـــ ومتى يجىء الوقت المناسب ؟

ـــ اقطع لسانك وانتظر •

مضى الوقت فى توتر وألم • اجتاحهم الكدر والنكد

فطارت الخمر من رءوسهم • وحتى القط الأسود استشعر فى الجو رائحة معادية فوثب الى حافة النافذة الوحيدة ، ثم رقد عاقدا ذراعيه تحت رأسه وأغمض عينيه طارحا ذيله بين القضبان • وألحت عليهم أسئلة واحدة ، من الرجل ، أهو سكران ؟ ، أهو مجنون ؟ ، وما الحكاية التى يتهمهم بسماعها ؟ ! • وطيلة الوقت ظل الخمار الرومى ملازما لصمته الميت على حين قام الجرسون بخدمته وكأنما هو لا يرى ولا يسمع •

وجعل الرجل الغريب ينظر اليهم بسخرية وشماتة ، ثم قال متوعدا •

ــ أن يقدم أحدكم على غدر فسأعاقبكم جميعا بلا رحمة ••

تشجعوا بمعاودته الخطاب ــ على الكلام فقال الكهل بصدق :

ــ أقسم لك ، نقسم لك جميعا ••

ولكنه قاطعه متسائلا :

ــ بم تقسم ان طالبتك بقسم ؟

دب أمل طفيف فى النفوس وقال الكهل بحرارة :

ــ بما تشاء ، بأولادنا ، بالله العظيم !

ــ لا قيمة لشىء عند زبائن خمارة حقيرة كهذه الخمارة !

ــ لسنا كما تظن ، نحن آباء صادقون ومؤمنون مخلصون ،

ولا يمنع ذلك ، أو لعله بسبب ذلك تشتد حاجتنا الى الترويح عن النفس المثقلة ..

فصاح بصوت مدو :

ـ أوغاد أنذال ، تحلمون ببناء القصور بلا جهد ولكن بالاستغلال الدنيء للحكاية !

ـ نقسم بالله العظيم بأننا ما علمنا بالحكاية ولا فكرة لنا عنها ..

ـ من منكم بلا حكاية يا جبناء ؟ !

ـ انك لم تتكلم ، كانت شفتاك تتحركان ، ولكن لم يصدر عنهما صوت !

ـ لا تحاول خداعي يا مخرف ..

ـ يجب أن تصدقنا وتتركنا لحالنا ..

ـ الويل لكم اذا تحركتم ، الويل لكم اذا غدرتم ، واذا وقعت الواقعة فسوف أهشم رءوسكم وأقيم منها متاريس أسد بها الممشى ..

الرجل مخيف حقا ، ولعله خائف أيضا ، وسيضاعف ذلك من سوء المصير . وزحف اليأس الى القلوب كموجة من البرد المميت . ولم يكف عن الشراب ، رغم أنه لا يسكر ولا يفتر ولا يهمد . وها هو يعترض المنفذ الوحيد للمكان ، قويا عنيفا فولاذى المبنى مثل قضبان النافذة .

راحوا يتبادلون النظرات بلا أمل ، وكلما لمحوا شبح ما وراء القضبان هفت أنفسهم اليه ولكن دون أن تند عنهم حركة ما ، وحتى القط الأسود بدا أنه هجرهم تماما ومضى ينعم بالسباب .. واشتد الحصر بأحدهم فتساءل فى اشفاق :

ـ أذهب الى المبولة ؟

فهتف الغريب غاضبا :

ـ من قال لك انى مرضعة !

فتأوه الكهل قائلا :

ـ هل كتب علينا أن نبقى هكذا حتى الصباح !

ـ أنتم سعداء اذا طلع الصباح عليكم ..

المناقشة عبث . الرجل مجنون أو مطارد أو كلاهما معا . وقد تكون وراءه حكاية وقد يكون وراءه لا شىء . وهم سجناء رغم كثرتهم . وانه لقوى شديد وهم لا قوة لهم ولا عزم . ولكن ألا يوجد سبيل للمقاومة ؟ ، المقاومة من أى نوع كان ؟ .

عادوا يتبادلون النظرات وقد تجسد النكد فى أعينهم وجرى الهمس تحت مستوى سمع الغريب :

ـ أى داهية ؟

ـ أى ذل ؟

ـ أى خزى ؟

واذا بنظرة عين تشى بما يشبه الابتسامة ، بل هى ابتسامة ، ابتسامة حقا ؟

ــ لم لا ، انه لموقف مضحك .

ــ مضحك ؟ !

ــ تأمله بحياد مؤقت تجده مهلكا من الضحك !

ــ حقا ؟

ــ أخشى أن أنفجر ضاحكا ..

وقال الكهل بصوت مسموع بعض الشىء : ؟

ــ تذكروا أننا ما زلنا بعيدين عن ميعاد انصرافنا المعتاد .

ــ ولكن لم تعد هناك سهرة ؟

ــ لأننا أوقفناها بلا سبب .

ــ بلا سبب ؟!

ــ أعنى بلا سبب يمنع من مواصلتها « الآن » .

ــ وبأى روح نواصلها بعد ما كان ؟

ــ لننس الى حين الباب ولنر ما يكون .

لم يرحب بالاقتراح أحد ولم يرفضه أحد . وجاءت الأكواب الجهنمية . على مرأى من الرجل الغريب ولكنه لم يعبأ بهم . وأفرطوا فى الشراب . دارت الرءوس . استخفتهم النشوة . انزاحت الهموم بسحر ساحر . أخذ الضحك يتعالى . رقصوا فوق مقاعدهم . تبادلوا القافية . وغنوا معا :

عيد الأنس هلت بشايره

وطيلة الوقت تجاهلوا الباب . نسوا وجوده نسيانا تاما . استيقظ القط الأسود وراح يتنقل من مائدة الى مائدة ومن ساق الى ساق . شربوا بنهم ؛ طربوا بنهم ؛ عربدوا بنهم ، كأنما يستمتعون بآخر لياليهم في الخمارة .

وحدثت معجزة اذ تقهقر الحاضر حتى ذاب في مد من النسيان ، وتحللت الذاكرة فنفضت من خلاياها كل مكنوزها . لم يكن الواحد يعرف صاحبه . انه لنبيذ جهنمي حقا ، ولكن ، أجل ولكن ..

— ولكن أين نحن ؟

— خبرني من نكون أخبرك أين نحن ؟

— كان ثمة غناء ؟

— و كان بكاء على ما أذكر ..

— وكان ثمة حكاية .. ترى أى حكاية ؟

— وهذا القط الأسود ؛ هو شيء محسوس لا شك فيه .

— أجل انه الخيط الذى سيوصلنا الى الحقيقة ..

— ها نحن نقترب من الحقيقة ..

— كان هذا القط الها على عهد أجدادنا .

— وذات يوم جلس على باب زنزانة ثم أذاع سر الحكاية ..

ـــ وهذد بالويل •

ـــ ولكن ما الحكاية ؟

ـــ كان في الأصل الها ثم انسخط قطا ••

ـــ ولكن ما الحكاية ؟

ـــ كيف لقط أن يتكلم ؟

ـــ ألم يفض الينا بالحكاية ؟

ـــ بلى ، ولكنا ضيعنا الوقت فى البكاء والغناء •

ـــ ها قد اكتملت الخيــوط وتمهد الطــريق لاقتنــاص الحقيقة ••

وارتفع صوت الجرسون العجوز وهو ينهــر شــخصا ما مهددا ومتوعدا ويصيح به :

ـــ اصح يا كسلان والا هشمت رأسك •

وأقبل رجل ضخم محنى الهامة من الانكسار •، راح يرفع الأقداح والصحاف ، وينظف الموائد ، ويجمع النفايات من فوق الأرض • كان يعمل دون أن ينبس بكلمة أو ينظر الى أحد ، وقد غشيه حزن عميق واغرورقت عيناه بالدموع •

تابعوه برثاء واشفاق ، وسأله أحدهم :

ـــ ما الحكاية ؟

ولكنه لم يلتفت اليه وتابع عمله صامتا حزينا مغرورق العينين :

وتساءل الكهل :

ـ متى وأين رأيت هذا الرجل ؟ !

ومضى الرجل نحو المشى بملابسه القاتمة المكونة من بلوفر أسود وبنطلون رمادى غامق وحذاء بنى من المطاط ، فعاد الكهل يتساءل :

ـ متى وأين رأيت هذا الرجل ؟!

زِيَارَة

ملقاة على الفراش بلا حول • عاجزة تماما عن أى حركة جدية عدا حركة الجفنين والعينين أو رفع اليد الى مستوى الصدر من حين لآخر • وقد امتص المرض حيويتها ولحمها فلم يبق الا جلد أصفر مشوب بزرقة وعظـام بارزة تكاد تمزق الجلد عند المفاصل • وهى تنظر الى لا شىء أو تغمض عينيها ، وفى أحسن الأحوال لا ترى أبعد من جدران حجرتها •

نادت بصوت ضعيف رفيع كصوت طفل :

ــ عدلية ••

ولكن عدلية لم تسمع • ستدعى أنها لم تسمع • وستجد عذرا فى ضعف الصوت أو بعد المطبخ أو وش موقد الغاز • وهى لا تستطيع أن ترفع صوتها • ولا تستطيع أن تهدر مطالبها الصغيرة • ونادت مرة ثانية :

ــ عدلية ••

ستجىء كالعادة عن نومها • انها واقعة تحت رحمتها • تحت رحمتها تماما • هى لا تألو أن تسترضيها بالأجـرة المحترمة والكساء والغذاء الى أنها تستأثر بتدبير شئون البيت

فهى سيدته الحقيقية • وما الحيلة فى ذلك ؟ • اذا قررت عدلية يوما التخلى عن خدمتها تركتها للضياع والموت • وهى تتجنب أن تثقل عليها أكثر مما تقتضيه الضرورة الملحة ولكن ما العمل ونداء الحياة لا يكف عن التردد حتى النفس الأخير •

واستجمعت قواها الخائرة ونادت للمرة الثالثة ·

ـــ عدلية !

وتجمع الغضب بين عظام صدرها ولكنها لم تستسلم لطغيانه • عدلية على أى حال مرهقة بالعمل • انها تكنس وتغسل وتطبخ • تتسوق وتستبضع • وتقوم من شخصها مقام اليدين والقدمين والحواس جميعا • هى كل شىء لها فهى تطعمها وتسقيها وتنظفها ، تجلسها وتنيمها وتريحها من جنب لجنب •

وارتفع صوتها قليلا متشكيا متباكيا وهى تنادى :

ـــ عدلية !

ترامى وقع أقدام ثقيلة ، ثم ظهرت عدلية عند باب الحجرة بوجه جامد يحمل طابع تذمر ثابت ، وتساءلت بنبرة لا تخلو من جفاء :

ـــ تنادينني يا ستى ؟

ـــ بح صوتى وأنا أناديك يا عدلية ••

اقتربت من الفراش فقالت المرأة :

ـ سيجارة يا عدلية ..

تناولت عدلية علبة السجائر من فوق الترابيزة ، أشعلت سيجارة ، ثم وضعتها بين شفتى سيدتها وهى تقول :

ـ أنت تعلمين أن التدخين مضر بصحتك ..

وغادرت الحجرة ..

اذا ضاقت بها يوما قضى عليها بالهلاك . لا أحد لها فى الواقع سواها . أما عن أبناء وبنات اخوتها فمنذا الذى يهتم بلخالة عيون ؟ ! . انها ملقاة منسية ، تتعلق بأذيال الحياة بخوف ويأس ، وتتمنى الموت بلسانها . والقلب قبل أن يهتصره الداء قتله الحزن لفقد الابن الوحيد فى مظاهرة دامية . من عجب أنها لا تفقه للسياسة معنى ولا يتحرك فى نفسها لها ساكن ورغم ذلك فقد التهمت وحيدها . وتوفى الأب بعد استشهاد ابنه بعام واحد . وها هى ذكريات الأحزان تختلط بأنات المرض ومخاوف الضياع .

فى العيد زارتها بثينة ابنة المرحومة أختها . ناظرة مدرسة ابتدائية ، والوحيدة التى تتذكرها فى المواسم . وقد أهدتها باقة ورد وعلبة حلوى وجلست على كرسى على كثب من الفراش . دمعت عينا عيون وهى تقول :

ـ أشكرك يا بثينة ، كيف حالكم ؟ كيف حال الجميع ؟ كى أنى مشوقة لرؤيتكم ولكن لا يسأل عنى أحد ..

اعتذرت بثينة بابتسامة وقالت :

ـــ الدنيا شواغل يا خالتى ••

ـــ لا أحد اى غيركم ، وحتى الأمــوات يجــدون من يتذكرهم ••

ـــ كم ترددين على خاطرى يا خالتى ولكن الدنيا شواغل ••

ـــ نسونى تماما يا بثينة ••

لاذت بثينة بالصمت فقالت عيون :

ـــ انى خالتهم ، الوحيدة الباقية على قيد الحياة ؛ ولو تركتنى عدلية لمت جوعا فوق فراشى ••

وزفرت لوعة ثم قالت :

ـــ كنا ـــ أنا وأمك وخالتك ـــ أخوات سعيدات ، وكانت أياما سعيدة ••

ـــ رحمهما الله !

ـــ كنت الصغرى ولم يكن يعجبنى العجب !

ـــ ربنا يشفيك يا خالتى •

ـــ يا له من دعاء لن يتحقق يا بثينة ، انى وحيدة مهجورة ، وقد وكلت عنى أحد الجيران لتسلم معاشى •

وجففت دمعة بيدها النحيلة المعروقة الزرقاء وقالت :

ـــ انى خائفة يا بثينة ، وأعمل ألف حساب لليوم الذى تذهب فيه عدلية ••

ــ هيهات أن تجد بيتا كبيتك يا خالتى ..

ــ ان خدمتى الشخصية شاقة وغير سارة ، لذلك لا يفارقنى القلق ..

ــ انها فى الواقع تهيمن على بيتك ومعاشك فكيف يهون عليها أن تهجرك .. ؟

ــ ولكننى قلقة . دائما قلقة ، لا يتخلى عنى الوسواس ، وخوفى منها لا يقل عن خوفى عليها ..

وسكتت بثينة اما لأنها لا تجد ما تقوله ، واما لأنها ملت تكرار الاكليشيهات ، فقالت عيون :

ــ آسفة يا بثينة ، نفد رصيدى من الكلام الطيب ، ولكن لا يصح أن أضايق أكثر من ذلك الانسانة الوحيدة التى حافظت على الوفاء لى ..

وغيرت لهجتها من التشكى الى الحياد أو الاشفاق ثم سألت :

ــ خبرينى الآن عن العلاقة بينك وبين زوجك ؟

فتنهدت بثينة وقالت بايجاز :

ــ بين بين يا خالتى .

ــ كيف وأنت شابة ولا كل الشابات ؟ !

ثم مستدركة وابتسامة باهتة ترف على شفتها الجافتين المتغضنتين :

ـ أنت جميلة يا بثينة ، وكما قالوا فأنت أشبه نساء الأسرة بخالتك عندما كنت فى سنك !

أحنت بثينة رأسها بالايجاب وهى تبتسم أيضا .

ـ عندما كنت أسير فى الطريق أو أطل من نافذة كانت الأعين تلتهمنى التهاما !

فضحكت بثينة وهى ترنو اليها بعطف :

ـ وتقولين ان حالك مع زوجك بين بين ! .. متى يشعر بنعمة الله التى نعمه بها ؟!

ـ هكذا هى الدنيا يا خالتى ..

ـ دنيا لعينة يا بثينة .

ـ ولا أمان لها يا خالتى ..

ها هى عدلية قادمة بصينية الغداء . أجلستها مسندة ظهرها الى وسادة ثم شرعت فى اطعامها .

وأرادت هى أن تتودد اليها فقالت :

ـ طعامك لذيذ يا عدلية ..

ثم تبتسم ولم تشكر وكأنها لم تسمع ، وكالعادة تبدد ثناء الضعيف فى الهواء .

ـ مالك يا عدلية ؟

أجابت بنبرة لم تخل من خشونة :

ـ أفكر فى بنتى ..

ـ ربنا يسعدها يا عدلية ..

ـ ولكنها شقية مع الرجل ..

ـ مهما يكن من أمره فهو لن يفرط فى أم أبنائه السبعة ..

ـ انك لا تعرفينه يا ستى .

ـ عليك دائما أن تعقليها وتصبريها !

ـ ولكن ما العمل اذا طلقها ؟

أجل ما العمل ؟ . ما العمل لو جاءتها بابنتها وعيالها ؟ . لو أرادت ذلك ما وسعها هى الاعتراض . انها تحت رحمتها تماما . سيضيق المسكن الصغير بهم وسينقلب سوقا . كيف تتحمل الضوضاء والشقاوة ومن أين لها أن تطعمهم وتكسوهم ! . تهديد جديد يا عيون . ترى كيف قال لك الشيخ طه وهو يباركك ليلة دخلتك : « العز قدامك والسعد خدامك » .

ولم كانت أمها مزهوة بها لحد الهوس ؟ . وقد بادءها الحظ بزيجة سعيدة حقا . من قاض أصيل تزوجت . رآها ذات يوم مع والديها فى بنوار بسينما كوزمو جراف . كانت زوجة مدللة وأما سعيدة . وكان يتأبط ذراعها الى الأوبرا متباهيا بجمالها . وغازلها مرة أحد الباشوات فكادت تنشب معركة من أجلها . وقد انتهى ذلك التاريخ كله فوق هذا الفراش الكئيب وتحت رحمة هذه المرأة الصلبة التعيسة التى تأبى أن تجود عليها

بابتسامة • ودق جرس الباب الخارجى فاختلج جفناها بلهفة • هل من زائر جديد ؟ ..

ــ من يا عدلية ؟

ــ السباك يا ستى ••

السباك أيضا ! • دائما السباك • لصنبور المطبخ جاء أو الحمام • أو لعلها الماسورة أو البالوعة • فلتتجنب السؤال فضلا عن الاستجواب اتقاء للعواقب الوخيمة • سيجيء السباك مرة ثانية وثالثة ورابعة • كلما طاب له المجيء أو دعتــه الخنزيرة ! •

وأغلقت عدلية باب حجرتها كيلا تقع عيناه عليها ! • من قديم والشكوك تساورها ولكن ما الحيلة ؟ هكذا تقع الحوادث فى مسكنها الصغير • خارج الباب المغلق ، الذى يغلق بلا اذنها أو ارادتها باسم حمايتها ، وهى لا حيلة لها ولا قوة ولا معين • ولو طمع الرجل فى أكثر مما بين يديه ، لو ظن يوما أنها عقبة فى سبيله ، لو خطر له أى خاطر شيطانى فمنذا يدفع عنهــا الأذى ؟ ! • أرهفت السمع وهى فى غاية من الكدر ، وغلى الدم فى عروقها ، لا شك أن وحيدها الفقيد قد عانى انفعالا كانفعالها هذا هو الذى دفعه الى الموقف الذى أودى بعمره اليافع ، ولكنها نصف ميتة وطريحة الفراش •

وفتحت عدلية الباب وهى تقول :

ـ ذهب ••

ألم يستغرق من الوقت أكثر مما يتصور العقل ! ، وسألتها دون أن تشير الى ذلك :

ـ ماذا فعل ؟

ـ ماسورة الحوض ••

غالبت الغيظ حتى غلبته ثم قالت :

ـ ولكن ماسورة الحوض ••

فقاطعتها بحدة :

ـ انها قديمة وبحاجة الى اصلاح متواصل !

لن تنتهى حاجتها الى الاصلاح ، ولو استبدلت بها أخرى جديدة ، سيوجد دائما ما يستدعى حضوره من أسبوع لأسبوع • فليأت كلما شاء هواه أو شاء هواها وليقنع بذلك • على أى حال فعدلية بمثابة يديها وقدميها وحواسها جميعا • ومهمتها فى هذا البيت ليست بالمريحة ولا السهلة ولا السعيدة • والى ذلك كله فالشقاء لا يعفيها من ضريبته ولن يخلو رأسها من أسباب الأرق •

وذات يوم طرق الباب طارق غريب • وقالت عدلية لسيدتها :

ـ شيخ ضرير يا ستى يدعى أنك تعرفينه من قديم ••

وقبل أن تضيف كلمة جاء من الخارج صوت الغريب وهو يهتف :

ــ الشيخ طه الشريف يا ست عيون هانم !

ذلك الصوت ، ذلك الاسم . فلتسعفها الذاكرة المحتضرة . وتلقى قلبها رعشة ثم انساب من شغافه المهزوز فيض من الذكريات كدفقة نسيم عطرة فاجتاحها احساس بالسعادة غامر :

ــ تعال يا شيخ طه ، خذى بيده يا عدلية .

أقبل مقودا ، يتحسس الأرض بطرف عصاه ، قد انحسرت عمامته البالية عن جبين بارز ، وغار جفناه فى محجريهما ، منحنى الظهر من الكبر ، تطوق جبته الباهتة المنجردة الأطراف جسدا مهزولا . وقالت له عيون بعد أن اتخذ مجلسه :

ــ هاك يدى ممدودة يا شيخ طه ولكن لا تشد عليها فهى ضعيفة ..

صافحها برقة وحنان وهو يقول :

ــ سلامتك يا ست عيون !

ــ حمدا لله على سلامتك يا شيخ طه ، متى رأيتك آخر مرة ؟

هز رأسه يمنة ويسرة وقال :

ــ يا له من عمر !

ــ تلك الأيام الحلوة يا شيخ طه •
ــ ربنا يجعل أيامك كلها حلوة ••
ــ ولكن كيف ، انى طريحة الفراش ، وحيدة تماما يا شيخ طه ••

فأشار الى فوق وتمتم :
ــ عنده الرحمة •
ــ وكيف اهتديت الى مسكنى ؟
ــ صادفنى عم آدم بواب البيت القديم •

رنت بعينيها الكليلتين الى أخاديد وجهه وهو يقتعد الكرسى كتمثال للفاقة • كم كان قويا ممتلئا أيام كان مقرىء البيت القديم • يزورهم كل صباح فيشرب القهوة ويقرأ ما تيسر من القرآن ويفتى أمها فيما تستفتيه فيه • وهو الذى قال لها ليلة دخلتها « العز قدامك والسعد خدامك » • ومن حنايا الماضى تدفق شعور ودود أليف ممزوجا بالحنين والدمع • واذا به يسلت من قدميه الحذاء المتهرىء فيتربع فوق الكرسى ثم يتلو :

والضحى والليل اذا سجا • ما ودعك ربك وما قلى •
ولما شرب القهوة وخلت لهما الحجرة راحت تقول له :
ــ انى وحيدة يا شيخ طه •
فقال كالمحتج :



الشيخ طه الشريف يا ست عيون هانم !

ـــ لكن الله موجود يا عيون هانم .

ـــ دائما قلقة وخائفة ..

ـــ الله موجود يا ست عيون ..

ـــ ليتك تزورنى بقدر ما تستطيع !

ـــ هى أمنية الأمانى عندى .

ـــ وكيف تسير الأمور يا شيخ طه ؟

ـــ جرت مشيئة الله بأن يقطع الراديو أرزاقنا ولكن الله لا ينسى عبده ، المهم ألا تستسلمى للحزن ولا لليأس ..

ـــ انه القلق ، لا أحد لى الا عدلية ، واذا تخلت عنى ..

ـــ لن يتخلى الله عنك .

ـــ ولكنى وحيدة بكل معنى الكلمة .

فلوح بيده آسفا وقال :

ـــ يا للخسارة !

ـــ أأنا مخطئة يا شيخ طه ؟

ـــ كلا ولكنك غير مؤمنة !

ـــ ولكنى مؤمنة ، لقد فقدت ابنى وزوجى فى عامين متعاقبين ولكنى ما زلت مؤمنة ..

ـــ لست مؤمنة يا عيون هانم .

غلبها الكدر فلاذت بالصمت فعاد يقول :

ـ لا تغضبى ، المؤمن حقا لا يعرف الخوف ولا القلق ولا اليأس قلبه ..

ـ انى مؤمنة ولكنى طريحة الفراش ، وتحت رحمة عدلية ..

ـ المؤمن لا يكون تحت رحمة أحد الا ربه .

ـ ما أسهل الكلام ولكن ما أصعب العمل .

فاهتز رأسه يمنة ويسرة وقال بصوت ينم عن النصر :

ـ أجل .. ما أسهل الكلام ولكن ما أصعب العمل !

ـ لم أعد أفهم شيئا ..

ـ اسمحى لى بزيارتك كل يوم !

ـ أستحلفك بالله أن تفعل .

ـ ولكن بغير الايمان لن تجدى خيرا فى عجوز ضرير مثلى ..

ترددت قليلا ثم قالت بجزع :

ـ أخشى أن تضيق بك ، أعنى عدلية ؟

ـ ولكننى سأجىء .

ـ واذا .. ، واذا .. ، هبها ..

ـ صدقينى سأزورك كل يوم واذا لم يعجبها ذلك فلتنطح الجدار !

فتمتمت باشفاق :

ـــ اخفض صوتك يا شيخ طه فعلينا ألا نغضبها ..

ـــ انسى يا ست عيون أنك تحت رحمتها ، أنت تحت رحمة الله وحده ..

ـــ أجل .. أجل .. كلنا تحت رحمة الله وحده ، ولكن تصور ما سيحيق بى لو غضبت منى ؟

ـــ لن يصيبك الا ما كتب الله لك .

ـــ هذا حق يا شيخ طه ولكن تصور بالله وحدتى اذا هجرتنى !

ـــ لن تهجرك يا ست عيون فهى تعتمد عليك أضعاف ما تعتمدين عليها !

ـــ انى عاجزة أما هى فقوية ويمكن أن تعمل فى أى بيت !

ـــ يمكن أن تعمل فى أى بيت ولكن كخادمة أما هنا فهى ربة البيت !

ـــ كلامك جميل ومعقول ولكن الحقيقة مرة جدا فأنا عاجزة تماما ..

فضرب الأرض بعصاه الغليظة وقال :

ـــ ان نصف عجزك راجع الى اعتمادك الكلى عليها !

ـــ ولكن مرضى حقيقة ، حقيقة واقعة بشهادة الأطباء .

ـــ أنا لا أومن بالأمراض ولا بالأطباء ولكنى سأجاريك فى أفكارك الى حين ، اذا هجرتك يا ست عيون كما تتوهمين فسوف أجيئك بابنتى الكبرى المطلقة .

شع من عينيها الغائمتين نور طارىء وتساءلت بلهفة :

ـ حقا ؟ !

ـ سأستغنى عنها من أجل خاطرك •

فشعرت بخجل من نفسها وقالت :

ـ ولكنك لا تستطيع العيش بمفردك !

فضحك لأول مرة وقال :

ـ عجوز ضرير فكيف يعيش بمفـــرده ؟ ! ، طالما عشت بمفردى قبل طلاقها !

ـ لا أريد أن أثقل عليك •

ـ انما تثقلين على نفسك كان الله فى عونك •

وساد الصمت مليا • صمت مشبع بالطمأنينة والسلام •

وتنحنح ثم راح يتلو :

(تبارك الذى بيده الملك) •

وآن له أن يذهب فصافحها بحنان ثم ودعها وانصرف •

شعرت عيون بأنس لم تشعر به منذ دهر طويل • ونادت عدلية ثم قالت لها :

ـ عدلية ، اذا جاء الشيخ طه فاستقبليه بلطف وانسانية •

قطبت عدلية ساخطة وقالت بتأفف :

ـ لكنه رجل قذر يا ستى !

ـ انه مقرىء بيتنا القديم وقد ورثت صداقته عن أمى وأبى ••

ـ لقد رأيت قملة على جبته يا ستى ..

فقالت بحنق :

ـ لا يهمنى ذلك ، انه رجل مبارك ..

فقالت المرأة بنبرة وشت بوعيد :

ـ ولكننى لا تنقصنى المتاعب ..

فقالت عيون بالحاح :

ـ صبرك بالله ، انها رغبتى وأنتظر أن تحترميها !

ـ قلت اننى رأيت ..

فقاطعتها بتصميم :

ـ انه رجل مبارك ، وعليك أن تنفذى مشيئتى ..

تجهم وجه عدلية وهمت بالكلام ولكن بادرتها عيون باصرار :

ـ عليك أن تنفذى مشيئتى دون مناقشة !

تراجع وجه عدلية الى صورته العادية فى دهشة أو ذهول ورمقتها بنظرة قلقة مستطلعة . ترامقا طويلا فلم تجفل عيون تحت نظرتها النافذة . وجدت نفسها تصر على التحديق أو التحدى . واستهانت بعجزها ومخاوفها وتمادت فى التحدى . وارتعدت فى باطنها ولكن بحمى النصر فتهيأ لها أنها تتعملق .

واختلج جفنا عدلية مليا ثم غضت البصر . وغادرت

الحجرة وهى ترطن بكلام غير مفهوم • ولكن عيون طمحت الى مزيد من الطمأنينة والثقة فنادتها مرة أخرى • وجاءت عدلية وهى تقول بتذمر وضيق :

ــ الأكل فوق النار ••

فسألتها باصرار وتحد :

ــ خبربنى عما ستفعلين اذا جاء الشيخ طه ؟

حدجتها المرأة بنظرة متسائلة ثم سألت :

ــ من هو الشيخ طه ؟

اجتاحها الغيظ فقالت :

ــ تعبثين بى يا عدلية !

ــ ماذا أغضبك ؟ ، انى أسألك من هو الشيخ طه ؟

ــ ألا تعرفين من هو الشيخ طه ؟

ــ ما سمعت باسمه من قبل !

فقالت وهى تجمع عزيمتها على نضال مرير :

ــ ألم ترى الشيخ الذى كان يجالسنى منذ دقائق ؟ ، ألم تقدمى له القهوة بنفسك ؟

تفرست المرأة فى وجهها بريبة وقلق وقالت :

ــ لم يدخل بيتنا اليوم أحد ، لا شيخ ولا أفندى ، عم تتحدثين ؟

هتفت بغضب :

ـــ عم أتحدث ! ، ما شاء الله ، أتبلغ بك القحة ..

ـــ انك ترعبيننى ، من هو الشيخ طه ؟

ـــ جننت أم تريدين أن تجننينى ؟

قالت عدلية وهى تزداد قلقا :

ـــ أقسم بالله ، برأس بنتى ، ما رأيت الشيخ طه ولا سمعت عنـــه ..

ارتفع صوت عيون كما لم يرتفع منذ سنوات وهتفت :

ـــ تقسمين أيضا ، اذن فأنت تتـــآمرين على عقلى ، توهميننى بأننى أرى أشياء لا وجود لها ، بأننى مجنونة ، أهذا هو غرضك ؟ ، أهذا هو تدبيرك الأخير لسد الطريق فى وجهه الصديق الوحيد ؟ !

اتسعت عينا عدلية من فزع ، تهاوى صلفها فتبدد ، وهتفت بصوت متهدج :

ـــ اسم الله على عقلك يا ستى !

ـــ اخرسى ، أنا لا أخشاك : لست تحت رحمتك ، سيزورنى كل يوم ، هذه هى مشيئتى وعليك أن تنفذيها بلا مناقشة . اياك وأن تعترضى سبيله ، سأقطع عيشك !

اصفر وجه عدلية وجحظت عيناها ، وقالت بضراعة :

ـــ لا ترهقى نفسك ، ليهدأ خاطرك ، سأنفذ مشيئتك على العين والراس !

صاحت بها :

ــ كذابة ، مجرمة ، لصة ، زانية ، تحملتك سنين بلا ضرورة ، لست فى حاجة الى وجهك المطين ، وأنت بدونى لا تساوين مليما خردة ، لا أريدك ، اذهبى فى داهية ، فى ستين داهية ، بطرتك النعمة ، لم تقنعى بامتلاك كل شىء فى بيتى فعملت ليل نهار على اذلالى وتخويفى وتعذيبى ، انى أطردك ، لا ترينى وجهك بعد اليوم ، اذهبى ، فى ألف داهية ، فى ألف مليون داهية ..

تراجعت عدلية خطوات ، ركبها الذعر حتى زعزع جذور عقلها ، استدارت وهى تتلفت ، ثم اندفعت كريح هوجاء وهى تصرخ بأعلى صوتها ..



شجرة طويلة عريضة من الألقــاب والأوصــاف ولكن بلا ثمرة . فهو عامل ميكانيكى بشركة الشرق للمعادن ، وله من الأولاد سبعة ، ولكن يوميته ثلاثون قرشا . وهو لا يطلق لحيته توفيرا لتكاليف حلقها فحسب ولكن لأنه أيضا من رجال الطريق ، ومريدى الشيخ . عند انطواء نهار العناء يهرع الى زاوية الكومى ويجلس بين يدى الشيخ ، ما أنبله وما أطيبه ذلك البحر الذى يزخر بعلم الله . انه يلقنه آداب الدنيــا والدين . ولكن برجوعه آخر الليل الى البدروم يجــد فى انتظاره المتاعب . هناك المرأة التى أحدّها الدهر . أحدّ لسانها وأطرافها ومزاجها .

ــ طبعا لا تعرف ما فعل الأولاد وما حصل ؟

يا سيدى يا كومى أكان الأولاد يكدرون صفاء روحك ؟ لماذا لا يحدث الشيخ عن الأولياء فى بيوتهم !! .

ــ انى أعطيك جميع ما أملك فلا نبقى معى الا اللعنات .

ويجمح به الغضب فيزل اللسان وينحرف عن أدب الدنيا والدين ويتبدد جهاد الليل سدى .

وذات صباح وجد نفسه أمام المدير وجها لوجه فى الجراج الكبير • حياه بخير ما يجود به الولاء ، وهتف بالدعاء له • وقال :

ــ يا سعادة المدير ، رأيت لك حلما يجب أن تسمعه •

لكنه لم يوله أى اهتمام ومضى فى سبيله •

★★★

أى حلم رآه ذلك الأحمق !

لم يعد للأحلام معنى • لم يعد للطمأنينة مستقر • الشركة وحديقة الموز بالشرقية وعمارة الخازندار انقلبت تهما موروثة • وتبخر الطموح السياسى • أى حلم أيها السنى القذر ! • والشائعات تنتشر فى الجو مخلفة وراءها ذيلا طويلا من القلق • أليس عجيبا بعد ذلك أن يقول له صديق ان الغد هو الأمل ؟ أى أمل يا صاحبى ! • وقال له :

ــ لنكن واقعيين •

فقال صاحبه :

ــ الأمل واقعى أيضا •

ــ ان ان كل شىء مهدد بالزوال •

ــ انك متشائم •

ــ كلا ولكنى لا أدرى ماذا أفعل ؟

ــ افعل ما يفعله المطارَد •

ـ وما ذاك ؟

ـ لا تعتمـد كل الاعتماد على الحـديقة أو العمـارة أو الشركة . لابد من خزانة فى البيت واحرص على الحلى والجواهر ..

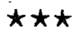
ـ وماذا عن جو القحة الذى يحاصرنا ؟

ـ ضع أعصابك فى ثلاجة !

تذكر السنى بحنق . الخبيث الذى يحترف الطيبة على حين تقدح عيناه شرا متأصلا . ثم يزعم أنه رأى له حلما ! . واذا بصاحبه يقول :

ـ دعنى أحدثك عن حلم رأيته ليلة أمس !

فضحك ضحكة عالية لم يفطن الآخر بطبيعة الحال الى مغزاها أو سببها !



أصبح يؤمن بأن المدير يتجنب النظر نحوه بازدراء صائب كلما مر به فى طريقه الى السيارة . ولا شك أنه يضيق به ويلعن وجوده . وأفضى بهواجسه الى زميله فى الجراج فقال الرجل :

ـ انك تخلق أوهاما لا أساس لها ، وأقسم لك أنه لم يدربك قط .

وحمل نفسه على تصديق ذلك . أجل فان العدم الكامل

خير من أن يكون مثار سخطه • وأراد أن يعترف بمخاوفه للشيخ ولكنه وجد نفسه يقول :

ــ حلت بركتك بابنى فهد فهو يتقدم نحو الشفاء •

فقال الشيخ :

ــ لو أصاب مرضه أحد أبناء الأغنياء لحشد له الأطباء ؛ فالله جل جلاله مع الفقراء •

فسأله :

ــ لماذا كان المؤمن مصابا ؟

فأجاب بثقة وايمان :

ــ ذلك انه لا يرتضى عن الجنة بديلا •

ان جلسات الليل فى الزاوية أو فى منظرة البيت شفاء القلوب الجريحة • وكلمات الشيخ أثمن من أشياء كثيرة يعدها أهل الدنيا سعادة وزينة • والجوزة التى يستعملها الضالون لاشباع الأهواء تعتبر هنا بحق وعاء للنور والحكمة الالهية • وما أجمل أن تكون محبوبا كالشيخ • أن يهبك الناس حتى أغنياءهم القلوب • لذلك تتهادى اليه العطايا الطيبات ، وهو يقبلها بسماحة نفس ، اكراما لهم ، لا حرصا عليها أو ولعا بها • وقد سأله ذات يوم أخ فى الطريقة :

ــ لم لا يعطينا مما أعطاه الله ؟

فغضب وقال له :

ــ يا أخي ، انه يعطينا ما لا يقدر بمال ••

★★★

قوانين يولية •• قوانين يولية • الكل يردد : قوانين يولية • وجعل يذهب ويجيء وهو كالمجنون • وقالت له زوجه :

ــ الصحة أغلى من أى شيء !

ــ أتدركين حقا ما الخسارة التى حلت بنا ؟

ــ نعم ، لست غرة ولا جاهلة ، ولكن ما زال عندك الشركة والعمارة والحديقة ••

ــ والضرائب الجديدة ؟

ــ الصحة وحدها هى التى لا تعوض !

وتأمل شحوب وجهها الذى يشهد بعكس ما ينطق به لسانها وتمتم :

ــ لا أحد يدرى أين يقف الطوفان ••

ــ ربنا موجود •

لم ينتبه الى قولها الا بعد مرور وقت • والحق قد أذهله • وكاد رغم الكرب يبتسم • وتخيل مرحها الطويل فشعر بأسى • وتمتم :

ــ ربنا موجود ولكن أهو معنا أم علينا ؟

فقالت بقوة :



حلت بركتك يابني فهد يتقدم نحو الشفاء

ــ ليس فى أموالنا مليم حرام ..

حتى ذلك لم يعد يصدقه بلا تحفظ . الأصوات التى ترتفع كل يوم وتؤكد اننا شر لصوص سعوا فوق ظهر الأرض ، ذكاءنا خبث ، اجتهادنا انتهازية ، سعينا أنانية ، ربحنا سرقة ، وجودنا شر واستغلال . كيف يصدق ! .. الوجوه تبتسم لا للتودد ولكن لتدارى الشماتة . وأحيانا يتسلل اليه صوت وهو يدخل السيارة « على الباغى تدور الدوائر » . وانه لشر أن يغضب أو أن يجادل ، وشر منه أن يفكر فى رد الاعتداء بمثله . البوليس الذى كان درعه أمسى مطارده . ومعبد القانون تتهاوى أركانه فوق رأسه ، ولكن هل يسعه الا أن يردد مع زوجه :

ــ ربنا موجود .

★★★

قال للشيخ بصوت متهدج من الفرح :

ــ يا له من يوم !

فقال الشيخ ببرود :

ــ لنبدأ الدرس ..

ــ ولكن النفس .. أعنى أنه يجب أن نتكلم .

ــ لندع الخلق للخالق ولنمض فى طريقنا .

ــ الدنيا تتغير يا مولانا .. من كان يظن ..

ــ ألا تود أن تسمع شيئا عن سيدنا الخضر ؟

ولكنه وجد عند زوجه أذنا تسمعه فقال لها :

ــ أخذوا أموال الأغنياء !

لم تفهمنى الغبية وتساءلت :

ــ أليست هى رزق الله لهم ؟

ــ لوح بيده مغيظا فعادت تسأل :

ــ ماذا أعطوا للفقراء ؟

لا تريد المرأة أن تشاركه فرحه • رأته مسرورا فصممت ــ كالعادة ــ على تكدير صفوه • وقد ترامى اليه نبأ عن حال المدير التى رئى بها وهو يستقل سيارته ولكن فاته أن يراه بنفسه • ولم يغب الرجل عن ذهنه طويلا • ووجد زميله يصخب بالحماس • ولما رآه أقبل عليه قائلا :

ــ اذا زلزلت الأرض ••

ــ ماذا تقول يا ابن والدى ؟

ــ أقول اذا زلزلت الأرض زلزالها !

وأوشك أن يسأله عما أعطوه للفقراء مرددا كلام زوجه ولكنه لم يجد من نفسه مشجعا • وسرعان ما انهلت من السماء قرارات التحسين • أجل يا ابن والدى اننا نخلق من جديد •

وقال له الشيخ :

ــ أصغ الى ••

وأراد أن يصغى ولكنه كان مكتظــا بالمشاعر ، فقال له الشيخ :

ـــ احذر الشماتة ..

فقال انه لا يشمت بأحد ولا عدو له فى الحقيقة ولكنه بدا رغم قوله كالثمل فقال الشيخ :

ـــ انك تتقهقر فى الطريق ..

فأغمض عينيه ليحجب عن بصره الدنيا التى تثيره فقال الشيخ :

ـــ استغفر الله ..

فقال متشكيا :

ـــ لم أذنب يا مولاى ، والمال والبنون ؟

واعتدل استعدادا للاستماع ولكن الشيخ قال

ـــ ما أبعدك عن مجلسى .

★★★

ذلك السنى لا أمر به حتى يصر على الترحيب بى بصوت كأصوات المنشدين .. لا يختلف باطنه عن الآخرين ولكن له طريقته الشريرة الخاصة به . ولا يبعد أن يفاجئنى ذات يوم بحلم جديد . لم أشغل نفسى به كأنه المكروه الأوحد فى هذه الدنيا ؟ . ان أمراض الأحزان تزحف على أصحابنا وعلى أن أقاوم ، ألا أبالى ، وغير ذلك من الكلمات التى لم يعد لها أى معنى ألبتة . وزوجه تبـــالغ فى اعلان المرح وبخاصـــة فى

النادى • جدران النادى تضج بالضحك كل ليلة ، ضحك المجانين • ويقولون — رغم ذلك — اننا وقعنا فى شرك كبير ما زال به متسع للحركة ولكنه قدّ من صلب لا ينكسر ولا يلين • واذا به يقع فى شرك آخر من صنع يده • أجل قرر أن يعشق الراقصة الألمانية بملهى الكونتنتال الليلى • أسرته كبرياؤها قبل شقرتها ، عندما قالت له خلال حوار طويل :

— كنا وما زلنا الأسياد !

فقال لها بتأثر :

— انى أعشق حزنك كما أعشقك •

وهى حادة كالنصل ولكنها مستكنة فى غطاء حريرى • أما زوجه فقد تدهور بها الحال رغم المرح التمثيلى • وقد رثى لها ولكن حبها مضى سريعا نحو موت غير متوقع • وعندما أممت الشركة جرى كل شىء نحو الموت • وقالت زوجه انه يجب الاسراع ببيع الحديقة والعمارة • هـذا رأى ولكن أين الشارى ؟ • وأين يضعون الأموال ؟ • وقال :

— خير ما نفعل ألا نفعل شيئا •

واستسلم بكليته الى غرامه • وقال ان عناصر بيولوجية وفسيولوجية تتعاون على تحطيمه من الداخل فلا يجوز أن يقويها بتعاسة ارادية فى سلوكه الخارجى •

وخطر النسنى على باله وهو يحلق ذقنه ذات صباح فغمغم :
ــ أى حلم يا فاجر !

***

سأله الشيخ :
ــ أتصغى الى حقا ؟
فأجاب بارتباك وحياء :
ــ نعم يا مولاى ..
رمقه بأسف وقال :
ــ انك لا تواظب على الحضور .
ــ الحق ..
ــ شغلتك الدنيا ..
ــ أبدا ، ولكننى أبحث عن شقة فوق سطح الأرض .
بدا الشيخ فاترا على غير عادة فتمنى الرجل ألا يكون انقطاع العطايا ــ نتيجة لتغير الظروف ــ وراء ذاك الفتور .
وعاد الشيخ يقول :
ــ علاوات ومشاركة فى الأرباح ، ماذا تفعل بما منّ الله به عليك من نعم ؟
ــ ما يفعل العطشان اذا وجد فنجال ماء
ــ ولكن الدنيا لم تشبع طالبا لها ..
ــ ما طلبت الا الستر ..

ــ لقد غرتك الحياة الدنيا •

ــ أبدا ، والله شهيد ••

ــ أقول لقد غرتك الحياة الدنيا ••

وفصل بينهما الصمت مليا ، ثم قال الرجل بحذر :

ــ هل من بأس فى أن أرشح نفسى لمجلس الادارة ؟

ــ الادارة !

ــ عمل نافع ، وأنا رجل محبوب بين الزملاء ••

ــ لا تسل أهل الطريق عن ذلك ••

ــ قال رجل صادق ان الحياة فى عبادة كما فى الخلوة ••

فغض الشيخ بصره وهو يقول :

ــ لم يبق الا أن تحلق لحيتك ••

وفرق الصمت بينهما ••

★★★

ــ بلوانا أخف اذا قيست ببلوى الآخرين •

فسأل صاحبه عما يعنى فقال باقتضاب :

ــ الحراسة ، على سبيل المثال •

ــ لا يدرى أحد شيئا عما يقع غدا ••

وتبادلا نظرة طويلة ثم سأل صاحبه :

ــ ماذا جنينا ؟

ــ التاريخ حافل بالأحداث الدامية ••

ــ انى أكاد أصدق أحيانا ما يقال عن اجرامنا !

فرنا اليه صاحبه بنظرة متسائلة فقال :

ــ اذا لم يكن ذلك كذلك فلم قد تخلى الله عنا ؟

وغرق فى الغرام حتى أذنيه • وتدهورت حال زوجه من سيىء الى أسوأ • وقرأ ذات صباح اسم السنى بين أسماء الناجحين فى انتخابات مجلس الادارة فهتف بحنق شديد :

ــ صاحب الحلم الفاجر !

وأضرب عن قراءة الصحف •

وأثار دهشته صديق بمرحه المتزايد رغم ما حاق به من خسائر مذهلة • وقال له :

ــ انك تمثل دورا غير لائق •

فضحك الرجل عاليا وقال :

ــ حق ان أموالنا قد اغتصبت ولكن هل أدلك على رجل قد تنازل عن أموال لا تعد ولا تحصى بلا اغتصاب ؟

وراح يستعرض فى ذاكرته الصحاب من الباشوات والبكوات ولكن صاحبه عاجله قائلا :

ــ اسمه الجوتاما بوذا !

وحثه على السماع باشارة من غليونه وقال :

ــ سأقص عليك قصته العجيبة ••

رِحلة

لفت الأنظار • كان لابد أن يلفت الأنظار • فرجل طاعن فى السن وغاية فى الوقار — اذا جلس فى قهوة بلدية صغيرة مزدحمة بالصعاليك — لابد أن يلفت الأنظار • ولما زالت الدهشة عنهم رجعوا الى ما كانوا فيه وراح هو ينظر الى الحارة من مجلسه ويلامس قدح الشاى بأنملته دون أن يفكر فى تناول رشفة منه • لاشك أنهم يظنونه ضيفا غريبا طارئا لا تفسير له ، أو عابر سبيل أقعده التعب ، كلا •• انهم هم الضيوف ، هم الطارئون ، أما هو •• ؟

أما هو فقد كان فى ذلك الموضع مولده •

لقد زال البيت القديم تماما • وقامت القهوة فى مقدم الخرابة التى حلت محله • قامت مكان مدخل البيت القديم ودهليزه ، وتحت موضع حجرة الجلوس التى كانت حجرة جلوس منذ سبعين سنة • وقد جاء لأن شيئا ما نزع به الى رؤية الحى القديم • وها هى الحارة لم تكد تتغير • كلا • لقد تغيرت كثيرا • فعند مدخلها ترتفع عمارة جديدة • كذلك مهدت أرضها بالبلاط • ودكاكين كثيرة فتحت مكان الأدوار التحتانية من البيوت القديمة • لذلك اجتاحتها ضوضاء غريبة بعد أن لم

يكن يسمع بها الا أصوات الغلمان وهم يلعبون ويغنــون ويتشاجروز • لقد تغيرت كثيرا ولم يكن يبقى من ذكراها المستكنة فى النفس الا القليل •

شىء ما نزع به الى زيارة الحى القديم ، ورغم اختفاء بيته فها هى البيوت الأخرى ، قديمة كما كانت وازدادت قدما ، أما سكانها •• ؟ !

لا أهمية للسؤال عنهم • تمزقت العلاقات القديمة وفنيت صلاتها الحميمة ، كابدت جميعها تجربة صارمة حادة كالموت تماما • ان الشىء الذى نزع به الى هنا لا يبحث عن الآخرين • ومع ذلك ، أو رغم ذلك ، فانه استوقف صاحب القهوة وهو يمر أمامه وسأله :

ــ من يقيم فى ذلك البيت ؟

ــ انه وكالة خشب •

ــ وذلك البيت ؟

ــ عائلات كثيرة ، كل عائلة فى حجرة •

ــ وذلك البيت ؟

ــ آيل للسقوط ••

كان لأرباب البيوت هيبة فاذا ظهر أحدهم فى الحارة سكت ضجيج الغلمان وتوقفوا عن اللعب أو تواروا عن الأنظار •

ــ وأين الكتّاب والسبيل ؟

ـــ لا يوجد ، ولم يوجد ••

ـــ كان هناك كتاب وسبيل •

ـــ ولكننى أعمل هنا منذ عشرين سنة !

يحسب أنه ملك التاريخ ! • وابتسم ابتسامة لم يرتسم منها شيء على تجاعيد وجهه • وسأله الرجل باهتمام :

ـــ أتريد شراء أرض ؟

فشكره وهو يعجب لغـرابة الفكرة • ولحظة ـــ وهو يبتعد ـــ بجانب عينه كما ينظر الأصيك الى المحدث •

لماذا جاء ؟ • لقد مات كل شيء أو أصبح فى حكم الميت • وبعدت الذكريات لدرجة لم يعد يخفق القلب لها الا قليلا • ومن الخير له ألا يخفق فوق ما يحتمل • أما ذلك الغلام الذى مات فى صباه فالأمر ما لم يمحه النسيان • حتى اسمه ـــ رفاعة ـــ لم ينعدم • كان يقيم فى البيت الآيل للسقوط ، ينتعـل التراب توفيرا لصندله ، وينظر اليك بعينين واسعتين ناعمتين لا أثر فيهما للعنف أو الشقاوة • ويلعب الحجلة فى ذاك المكان تحت تلك النافذة ، نافذة زينب • لتهنأ الذاكرة بما حفظت من أسماء قليلة نادرة ولكن مفعمة بحيوية خارقة تتحـدى الزمن • لا يذكر من زينب الا اسمها ، ولا يذكر من جمالهـا الا سحره الباقى كعبير مستحيل الوصف ، وأنهـا كانت « كبيرة » بالقياس الى أعمارهم وقتذاك ، وكانت تطل من



لا يذكر من زينب الا اسـمها ، ولا يذكر من
جمالها الا سحره الباقى كعبير مستحيل الوصف

فرجة فى شيش الشباك وهم يلعبون تحتها ، وأحيانا تناديه بنبرة دسمة مؤثرة قد تغير مع الزمن حتى جهاز السمع الذى كان يطرب لها ، عشقها فى العاشرة كما يعشق ابن العاشرة ، عندما يرفع عينيه ليرى وجهها ! ، أجل عندما يرى وجهها ، وقالت له ذات يوم « يا ولد انك تثير الغبار فاحتشم » ، يا له من يوم ذلك اليوم ، ولعلها اليوم فى الثمانين من العمر ان تكن معدودة من الأحياء ، أو لعل النباتات والهواء امتصت مخلفاتها من النتروجين وثانى أكسيد الكربون والماء وبرادة الحديد والنحاس والكلسيوم ، أجل لا يبعد أن يكون ــ هو ــ قد استنشق بعضها أو أكل البعض الآخر وهو لا يدرى ، كان يغسل وجهه ويمشط شعره ويتأنق فى جلبابه وينتعل حذاءه المطاط ويبدى أقصى ما عنده من مهارة فى اللعب والقفز والشقلبة تحت عينيها ليسرها ويحظى باعجابها ، ويتيه زهوا اذا سمع همسها الضاحك « أنت بهلوان يا ولد ! » فيضاعف من الشطارة والعفرتة ، وقد لازمته تلك العادة فى أطوار متأخرة من حياته وهو يعرض لألاعيبه فى ركاب الوزراء والحفلات العامة ليستجلب التصفيق الحاد من الجنسين ، حدث ذلك تحت النافذة التى لم يعد يطل منها أحد والتى تنتظر بين حين وآخر من يقتلعها ويرمى بها فوق ركام من الأخشاب والحجارة والتراب ، ولم تكن هذه القهوة

قائمة ولم يكن أحد يحلم بها ، وهى الآن خلية للشبان الذين لا يرحمون عجوزا من زعقاتهم وضحكاتهم وضرب الموائد الخشبية بقبضاتهم •

وذات صباح فتح عينيه فرأى جدته تنظر اليه باستغراب وتسأله :

ــ من هى زينب ؟

فدعك عينيه ولم يجب أو بالأحرى لم يفهم ، فقالت :

ــ تنادى زينب وأنت نائم فمن هى زينب ؟

ولما لم يجب حركت يدها برثاء :

ــ تسقط فى الحساب والديانة وتحلم بزينب ! •• يا خيبتك القوية ••

ولما قرأ « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه » فى وصف القيامة أرعبته الصورة ، وبخاصة ما يتعلق بامكان الفرار من زينب وتركها لشأنها ، واستقرت الصورة فى قلبه طويلا كمأساة لا شفاء منها • ومن عجب أنه جاء الحارة وهو لا يذكر زينب ألبتة ، حتى رأى النافذة ! • أما رفاعة فكان يلعب تحت النافذة • وكان نحيلا لدرجة تستثير الضحك فكان يبتسم لضحكاتنا ولا يحنق أو يغضب • لا يذكره حانقا أو غاضبا قط • ولكنه كان يذعر اذا تحرش به الشربينى • ولم يكن الشربيـــنى يتحـــرش به لســـبب محـــدد ولكن لأنه

كان من طبعه أن يتحوش بالجميع وبخاصة الضعفاء منهم . كان باختصار فتوة العصابة . وقلت له مرة « حرام عليك .. يجب أن تخاف ربنا » فأعاد كلماتي بصوت كالنهيق وكان ذا قدرة غريبة على الاستهزاء بكافة القيم رغم أنه لم يجاوز العاشرة . ولم يكن التحدى ليجدى معه ولو اجتمعنا عليه كلنا . فقوته وجرأته كانتا كالاعصار الذى يطيح بأى شيء يعترض سبيله . كان رئيسنا بالانتخاب الطبيعى ولكن بلا خلق ولا مبادىء ولا يهاب أبا ولا أما . ولا أذكره الا ضاحكا أو غاضبا أما العواطف الرقيقة فلم تعرف مكانا فى قسمات وجهه ، ولكنه كان رجلنا عند الشدائد ، عند أى اقتحام لحارتنا ، أو اعتداء على أحد منا ، وكان أيضا كريما لا يستأثر بمليم وحده . وكان أمامنا فى التجارب الجديدة ، يشدنا اليها واحدة بعد أخرى ، والآخرون يلهثون وراءه مشدوهين .

ــ هل سمعتم عن السيرك ؟

ــ وما السيرك يا شربينى ؟

فيمضى بنا اليه ونكتشف بفضله دنياه الساحرة . أو يقول باستعلاء :

ــ طبعا أنتم لا تعرفون الجبل !

ويقودنا الى المقطم فنرقى فى معارجه فوق العالم كله حتى يئن رفاعة متشكيا :

ــ كفاية •• تعبت ••

فيقول له بازدراء :

ــ تقدم يا بنت !

ويوم جاءنا قابضا على ذيل قط ميت وسألنا :

ــ ما فائدة هذا ؟

فأجاب رفاعة :

ــ ندفنه فنكسب ثوابا !

ــ يا تربى يا حقير !

وأمرنا أن نتبعه فسرنا وراءه والمغيب يهبط فوق المآذن والقباب ، حتى وقفنا فى عطفة تنحدر الى شارع الخليج • وقف مخفيا القط وراء ظهره حتى رأى الترام قادما من بعيد • انتظر حتى مر الترام أمام العطفة ثم رمى القط فى مقصورة الدرجة الأولى فارتطـم بالرءوس وأسـقط الطرابيش ثم انطلقت العصابة بأقصى سرعة فى الظلام • وما زال يقودنا من فتح الى فتح حتى قال لنا ذات يوم :

ــ انكم لا ترون المرأة الا وراء الشيش أو فى ملاءة مثل زكية الفحام !

تطلعنا اليه باهتمام ــ عدا رفاعة الذى لم يبق منه وقتذاك الا ذكرى ــ أجل تطلعنا اليه باهتمام فقال :

ــ سترونهن بلا حجاب ولا حاجز ولا تمنع !

تجلى الشك فى الأعين فقال بمباهاة :

ـــ موعدنا يوم السينما ، وليرتد كل منكم جاكتة فوق جلبابه ..

وقد غاب الشربينى عنى دهرا حتى كنت فى جولة تفتيشية بجرجا فصادفته على غير انتظار . عرفته من أول نظرة كما عرفنى . كان معتما بعمـــامة خضراء مطلق اللحية ، يدعى « عبد الله المدنى » ويزعم أنه مهاجر من جيرة رسول الله ، ويبيع للبسطاء ترابا فى لفافات من الورق قال انه من تراب القبر النبوى وانه يشفى من جميع الأمراض . رآه وسط حلقة من مريديه فترامقا مليا ، ثم لحق به فى نادى الموظفين ، وما كاد يخلو اليه حتى صاح :

ـــ بالأحضان !

فتعانقا . وتساءل الرجل عن صناعته الغـــريبة فقـــال الشربينى .

ـــ الرزق له أحكام !

ـــ ولكن ..

ـــ طول عمرك تقول « لكن » .. الحق ان كل شىء سخيف ..

وجعل الرجل يضحك حتى قال الشربينى :

ـــ لى زوجة وأولاد فى القاهرة ولكن ضاق بى الحال مذ ولت أيام الفتونة فهاجرت الى البلاد أعمل طبيب أســـنان

أو وليا من أولياء الله •• وهو خير على أى حال من القتل !

ــ ومستقبل أولادك ؟

فضحك كأيام زمان وقال :

ــ لا خوف عليهم ما دام أولاد الكلب يرتفعون الى أعلى المناصب ••

وعندما تصافحنا للوداع بسط لى يده دون أن ينبس فدسست يدى فى جيبى وأنا أقول :

ــ لك فى ذلك حق ، فطالما جدت علينا بسخاء ••

ترى ماذا لقى من الحياة بعد ذلك اللقاء الذى مضى عليه ربع قرن من الزمان ؟ • ماذا لقى يا زينب ؟ • كلا •• لقد تغيرت الحارة تماما ، أين الحوض الذى كانت تسقى منه بغال عربات الرش ؟ أين كشك الحنفية العمــومية ؟ • وهــؤلاء الزبائن المزعجون ألا يريدون أن يسكتوا ؟ • وكيف تشعر أنت بهذه الغربة وأنت جالس فى مسقط رأسك وبين ذكرياتك الحميمة ؟•

ورفاعة يحجل مؤثرا السلامة على أى شىء • انه يخافه الشربينى ويضاعف من تودده اليه • وزرنا القرافة فى أحد المواسم قبيل وفاة رفاعة بأيام • كنا نفرح كثيرا بزيارة القرافة فى المواسم • ونلعب فى الحوش أما اذا ترامى الينا نبأ ميت جديد فنهرع الى القبر لنشهد الدفن ولو من بعيد • ووقفنا

عند قبر أم رفاعة نتبادل الأحاديث • وسأل سائل لم أعد أذكره :

ــ ماذا يفعل الأموات فى القبور ؟

فأجاب رفاعة بايمان :

ــ أنهم يروننا ويسمعوننا ، أمى ترانى الآن وتسمعنى ، كانت تقول لى ذلك وهى صادقة ••

ــ والظلام ؟

ــ يذهب بتلاوة القرآن وتوزيع الرحمة على المساكين •

وتلا الصمدية •

ــ والحساب ؟

ــ يكون فى أول ليلة فقط •

ــ والمرزبة ؟

ــ فظيعة ولكن القرآن ، ولأنها تركتنى صغيرا يتيما فذلك خفف من الحساب ، هكذا قال أبى ••

ــ وكلنا سنموت !

فتساءل الشربينى بارتياب :

ــ كلنا ؟

ــ نعم كلنا ، حتى سيدنا النبى مات •

وهز الشربينى رأسه هزة غامضة ••

ــ وهى الآن فى الجنة ؟

ــ الجنة لا توجد قبل يوم القيامة •

ــ ويعاد الحساب مرة أخرى ؟

ــ قال سيدنا ذلك فى الكتّاب وأكده •

وتمتم الشربينى باسما :

ــ عليه العوض ••

كم كان مؤثرا محزنا مذهلا أن تقف فى نفس المكان بعد ذلك بأيام لنشهد دفن صديقنا الرقيق المهذب العزيز رفاعة • رأيناه فى كفنه وهو يحمل من النعش ، وهم يختفون به فى القبر ليضعوه الى جانب أمه •لم أصدق وبكيت طويلا • وعدت أنا والشربينى وآخرون ونحن لا نمسك عن الكلام • وقلت انه لن يحاسب لصغر سنه فقال لى أحدهم ان الحساب يبدأ من العاشرة • واختلفنا فى ذلك وطال الشد والجذب •

ــ على أى حال فحسابه يسير •

ــ وسيكون من السقاة فى الجنة •

عكفنا على ذلك حتى رجعنا الى الحارة • والظاهر أنى بكيت أكثر مما احتمل الشربينى فقال وهو يرمقنى بحدة :

ــ أنت خائف !

فقلت :

ــ أننى حزين •

فعاد يقول :

ـ أنت خائف ..

فغضبت فقال :

ـ يجب على أى حال أن نلعب !

ووقفنا فى المكان الذى ألف أن يلعب فيه ومربعات الحجلة ما تزال مرسومة على سطح الأرض . وشىء جعلنى أرفع رأسى فرأيت زينب فى النافذة تطل بوجه غير باسم . وتلاقت عينانا ولكنها لم تبتسم وحولت عنى وجهها . تمنيت أن أجرى اليها لأبكى بين يديها وأقول لها انى حزين يا حبيبتى ! .

ولكن الصحاب كانوا كثيرين . كانوا عصابة تملأ الحارة : لكنهم ضاعوا من الذاكرة فلم يعد لهم وجود . ولم يعد من المهم أن أسأل عن مصائرهم . ولا أدرى ان كنت ما أزال حيا فى بعضهم أم أننى ميت أكثر مما أتصور . على أى حال عشنا فى الحارة حياة الحضور الكامل وهى أقصى ما نستطيع أن نمارس من الخلود . حياة حاضرة تبدو عادة راسخة ممتدة ممتنعة عن التغيير أو الاضمحلال فضلا عن الزوال . ولم تخل من مقومات الحياة الجوهرية بين طرفى العبث والغيبيات . وامتلأت بالحب ولكنى آمنت بأنه بلا ثمرة .. وعرفت الموت كفراق مروع فظيع لا يخفف من بلواه شىء ، ولا الايمان نفسه . ولم أشعر غالبا بما بين أبعاد دنياى من تناقضـــات ولكننى عشت السرور بلا حدود كما عشت الحزن بلا عزاء .

★★★

وتثاءب .

ولفت الأنظار مرة أخرى بتثاؤبه .

وخلع النظارة الذهبية فجلاها ببفرتين ثم لبسها . وغامت السماء فحجبت شمس الظهيرة عن أرض الحارة . وتمتم صاحب القهوة « لا اله الا الله » . والرحلة وان تكن عبثا الا أنها أيقظت القلب دقائق . وقرر — فيما يشبه نشوة الانتصار — أن يزور الحى القديم من حين لآخر . ولكنه عندما غادر الحارة ، ومضت به السيارة الى المدينة ، استيقظ من غفوته ، من سطوة الماضى . وتذكر مواعيده ، واسترد اهتماماته اليومية .

تحرر تماما ، وتمتم :

— بعيد أن تتكرر ..

وتثاءب للمرة الثانية ثم تمتم مرة أخرى .

— النافذة لم تكد تتغير ..

المَسْطُول وَالقُنْبُلة

ليس الطريق هو الطريق . ولا الدنيا هى الدنيا . الناس فى عجلة ولهوجة . الطوار مزدحم . والشارع يموج بحركة لا تنقطع . والجنـــود يرمون بنظـرات جهنميـــة من تحت الخوذات . ما الخبر ؟ . وكلما رغب أن يركز ذاكرته تطايرت كغبار الأعاصير . كل ما يذكره أنه ذاهب الى دكان صديقه محسن الكواء . يا عم محسن أين أنت ؟ .. الطريق لا نهاية له . كأنه يسير الى القمر . وهو ثقيل جدا تكاد تخذله قدماه . والشمس ترسل أشعة سوداء . ورغم حيرته ابتسم . وندت عنه ضحكة . ونظر الى الناس باستغراب . أى شىء يستحق هذه العجلة ! . وتساءل ترى هل لبس طربوشه ؟ . انه يشعر بقشعريرة فى دماغه ولكنه ليس متأكدا من الطربوش . ولم يجد لا القدرة ولا العزيمة ليرفع يده ليتأكد من وجود الطربوش ولكنه صادف دكان أثاث قديم فمال اليه ونظر فى مرآة مسنودة الى ضلفة بابه فرأى طربوشه منطرحا الى الوراء كاشفا عن مقدم شعره الأسود . وسوّى رباط رقبته وهو ينظر وخيل اليه أن عينيه منتفختان وأنهما شبه مغلقتين . واشتدت الحركة

بالطريق وانتشرت الضوضاء • ما الخبر ؟ • وفتح فاه ليدندن أغنية ولكنه سرعان ما نسيها • وساءه ذلك جدا ونغص صفوه • ولكن حركة زئبقية رقصت فى باطنه فانبسط وابتسم • وقال انه بما يملك من قوة يمكنه أن يطير وأن يغوص فى الأرض وأن يخاطب ساكنى القطب • وها هو أخيرا دكان محسن الكواء • ونسى تماما أسئلة الطريق وحيرته • ولما صار أمام عم محسن انحنى تحية كأنه حيال ملك • ولبث منحنيا اعرابا عن امتنانه وكسلا • وابتسم الكواء فقال ويده لا تكف عن العمل :

ــ أستغفر الله يا أيوب أفندى ••

ــ أنت تستحق أكثر من ذلك •

ووضع له الصبى كرسيا عند باب الدكان فاعتـــدل فى موقفه ، وكرر التحية برفع اليد ثم مضى الى الكرسى فانحط عليه • وأشار الى رأسه وهو ينظر الى الكواء وقال :

ــ ليس بالامكان خير مما كان ••

فقال الكواء بفخار :

ــ ألم أقل لك ؟

ــ صنف لا مثيل له •

ــ وقلت لك خذ أوقية قبل أن ينفد ولكنك لم تصدقنى •

وبالجلوس فى الشارع عاد مرة أخرى الى الحيرة والأسئلة ، وتساءل عن معنى ذلك فقال الكواء :

ـــ عما قليل ستشهد الموكب .

ـــ الموكب ؟ !

ـــ هوووه .. عاد الرجل من لندن وها هم الجنود ينتشرون للصيد الحرام !

ودارت عينا أيوب بلا ارادة . واشتد شعاع الشمس اظلاما . واكتظ الطريق تماما . وتساءل :

ـــ لماذا ؟

لم يفهم الكواء المقصود بالسؤال ولكنه قال :

ـــ عودة مظفرة سيعقبها سقوط الوزارة ..

ونظر أيوب الى السماء فانطرح رأسه على ظهر الكرسى بلا حراك فابتسم الكواء وتساءل :

ـــ ألا يسرك أن تغور الوزارة ؟

لم يبد أيوب حركة أو اهتماما فكتم الكواء ضحكة وسأله :

ـــ خبرنى من الذى يحكمنا الآن ؟

أرجع رأسه الى وضعه الطبيعى وكأنه لم يسمع فعاد الآخر يتساءل :

ـــ ألا يسرك أن يعود الدستور ؟

فراح يدندن بنغمة غامضة فضحك الكواء قائلا :

ـــ يا بختك !

وترامى هتاف من بعيد فانطلقت شرارة الحماس فى الطريق

وصاح المأمور بصوت ملؤه الوعيد « النظام » . وخرج الكواء من الدكان واندفع يهتف مع الهاتفين . وضحك أيوب دون أن يبرح مجلسه . ومر الموكب كزلزال . وجرى في أثره دون أن وألوف . ولم يبق قاعدا في الطريق كله الا أيوب . وتراجع لصق الجدار ليتفادى من الراكضين . وراح يغنى بصوت لم يسمعه أحد :

البخت لو مال حتعمل ايه بشطارتك

ووقف المأمور ببدلته البيضاء وشريطه الأحمر في وسط الطريق ، والتيار المندفع يتجنبه فينحرف الى يمينه أو الى يساره . ولم يحدث من الجنود اعتداء الا حوادث شبه فردية . واذا بشاب ينقض على المأمور فجأة ويوجه الى بطنه لكمة ضارية . ترنح المأمور ثم سقط وفر الشاب كالريح . ووقفت النغمة في حلق أيوب . وحملق وهو يدارى اغراء بالضحك . ورأى الجنود وهم ينفجرون فيهوون بهراواتهم على الناس جزافا . وطارد المخبرون الشاب ولكن فصلت بينهم وبينه موجات متلاطمة من البشر . وتتابعت الأحداث بسرعة جنونية . دوت طلقات نارية . وفي ثوان تفرق الناس في كل عطفة حتى خلا الطريق . وأغلقت الدكاكين . ونهض المأمور معتمدا على ذراع ملازم وصاح برئيس المخبرين :

ـــ الويل لك اذا لم تأت به ..

وأرهقت الأحداث عينى أيوب • ولم يبق فى الطريق أحد سواه • حتى الجنود ركضوا فى أعقاب الهاربين • وأغمض عينيه ليستريح • وأخذته نوبة من الضحك فى الطريق الخالى • والتفت الى دكان الكواء فوجده مغلقا • ورغب فى تذكر الأغنية ولكنه لم يفلح • وأغلق عينيه مرة أخرى غير أن وقع حذاء ثقيل دعاه الى فتحهما • رأى المخبر يقبل نحوه بنظرة صلدة • كيف انشقت عنه الأرض ؟ • ومضى يقترب منه حتى أخفى عنه الطريق والسماء • وحملق أيوب فيه دون أن ينبس وهو يعانى قساوة الوحدة • وصاح المخبر بصوت كالسوط :

ـ ماذا يضحكك يا مجرم ؟

فانكمش أيوب فوق الكرسى مغمغما :

ـ لم أضحك ••

فصاح وهو يقرب منه وجهه :

ـ تضرب المأمور ثم تضحك ؟

فمد أيوب ذراعيه كأنما ليتقى الشر وقال :

ـ معاذ الله •• أنا لم أبرح مكانى ••

ـ فاهمنى أعمى يا ابن الحية ؟

ولطمه لطمة شديدة طرحته أرضا وأطاحت بطربوشه عشرين مترا • تأوه أيوب دون أن يحاول النهوض ولكن المخبر



وترامى هتاف من بعيد فانطلقت شرارة الحماس فى الطريق

شده من رباط رقبته حتى احتقن وجهه ، ثم قام وهو يترنح وقال بصوت منكسر :

ــ حرام .. والله ما تركت مكانى طول الوقت ..

ــ اخرس ... عينى لم تتحول عنك لحظة ..

وصفعه مرة أخرى . وأخرج صفارته ونفخ فيها . وجاءت قوة من الجنود فأشار الى أيوب قائلا :

ــ اقبضوا على المجرم الذى ضرب مأموركم ..

ودوى انفجار شديد فتجمدوا فى أماكنهم ، وقال جندى :

ــ صوت قنبلة ..

وأرهفوا السمع صامتين ، ثم أفاقوا من دهشتهم فقبضوا على أيوب وهو يصيح بأعلى صوته :

ــ أنا برىء .. لم أضرب أحدا ولم أتحرك من مكانى ..

وساقوه الى القسم ، ثم أدخلوه حجرة المأمور ، وأدى المخبر التحية وقال :

ــ الجانى يا فندم ..

وهتف أيوب :

ــ حرام عليك ، أنا برىء ..

وسأل المأمور المخبر وهو يحدج أيوب بنظرة قاسية :

ــ أين قبضت عليه ؟

ــ لحقت به فى ميدان عابدين ، جريت وراءه دون أن أرفع

عينى عنه ، قاوم مقاومة شديدة ولكننى ارتميت عليــه حتى أسعفنى الجنود ..

واستمر المأمور فى طعنه بنظرته ثم قال بحنق :

ــ تضربنى يا كلب !

وهتف أيوب يائسا :

ــ أقسم بالله ..

ولكنه لطمه لطمة أسكتته ثم أشار الى المخبر اشــارة خاصة وهو يقول :

ــ لا تترك به أثرا يمكن أن تراه النيابة ..

أحنى المخبر رأسه احناءة التفاهم ودفع أيوب الى الخارج . ودعا بمعاونيه فأوثقوا يديه وراء ظهره وانهالوا على وجهه بأكفهم وهو يصرخ من العذاب حتى سقط مغشيا عليه .

وأفاق فوجد نفسه مطروحا على أريكة خشبية فى نطاق من الجنود . وجذبه المخبر من ذراعه فاستجاب فى اعياء وذهول ، وسيق الى حجرة المأمور . وأجلس هذه المرة أمام مجموعة من الرسميين فى ملابس مدنية ، وهو يشعر بأن وجهه منتفخ حتى ليوشك أن يملأ الحجرة ، وكل موضع فى جسده وروحه انهار انهيارا . وسأله من ظنه رئيسهم :

ــ أنت مستعد للتحقيق ؟

فقال باستسلام :

ـــ أنا برىء ..

وطلب أن يشرب فجىء له بكوب . وسأله المحقق عن اسمه فأجاب :

ـــ أيوب حسن طمارة .

ـــ عملك .. ؟

ـــ كاتب بالدفترخانة ..

ـــ عمرك ؟

ـــ ثلاثون عاما ..

ـــ رآك الجنود والمخبرون ..

فصاح مقاطعاً :

ـــ أنا برىء .. وحق كتاب الله برىء ..

قال الرجل بحزم :

ـــ أجب على أسئلتى دون ضوضاء ..

ـــ لم أفعل شيئا .. ولا أدرى لماذا جىء بى الى هنا ..

ـــ أجمع الشهود على أنك أنت الذى ألقيت القنبلة أمام المحكمة المختلطة !

لم يفقه شيئا . انهم مجانين أو مساطيل . وقال مكذبا أذنيه :

ـــ لم أغادر الكرسى أمام دكان محسن الكواء ، ولم ألمس المأمور ..

ــ انك تهذى ، وهذا سيعقد الأمور فى وجهك •

ــ ولم أفعل شيئا ••

ــ أنت الذى ألقيت القنبلة !

ــ قنبلة ! •• حضرتك تقول قنبلة ؟ !

ــ عشرات من الجنود والمخبرين رأوك بأعينهم •

ضرب جبهته بكفه وصاح :

ــ لا أفهم شيئا مما تقول !

ــ كلامى واضح جدا • مثل فعلتك الشنعاء ••

ــ يا حضرة البك أنا لم يقبض على بتهمة القاء قنبلة ، لقد قبض المخبر على بلا سبب ، ثم ألصق بى ظلما وعدوانا تهمة الاعتداء على حضرة المأمور •

ــ اعترف فالاعتراف فى صالحك ، واذا اعترفت بمن دفعك الى الجريمة فلن تندم ••

فهتف أيوب بصوت محشرج :

ــ يا ناس حرام عليكم ، أنا رجل مسكين لم أعتد فى حياتى على أحد ، اسألوا عم محسن الكواء ••

ــ اعترف ولن تندم •

وقال رجل يجلس الى يمين المحقق :

ــ نحن نعرف الذين وراءك ، سنذكر لك أسماءهم ونطلعك على صورهم لتتأكد من صدق كلامنا ، وأنت مسكين حقا •

ولا شك أنهم غرروا بك ، لم تكن فى أيديهم سوى لعبة لعبوا بها بسفالة ، وسوف يخفف ذلك من ذنبك ، سيجعله لا شىء ، ولكن يجب أن تعترف ..

ـ اعترف ! .. ولكننى لم أضرب المأمور ..

ـ من أين أتيت بالقنبلة ؟

ـ يا رب السموات والأرض ..

ـ اذن فأنت لا تريد أن تعترف !

ـ أعترف بماذا ؟ .. ألا تخافون الله ؟

ـ احذر العناد العقيم .

نظر الى الوجوه المحدقة فيه فرآها سورا صلدا يسد أبواب الرحمة والأمل . وخطر له خاطر يأس فى أعماق محنته فقال :

ـ أتريدون حقا أن أعترف ؟

فعكست أعينهم اهتماما كاد أن يكون ودا وقال المحقق :

ـ تكلم يا أيوب .

فقال بصوت منخفض :

ـ أعترف بأننى مسطول ..

فحل محل الاهتمام غيظ وحنق :

ـ أتهزأ بنا ؟

ـ ربع قرش فى معدتى ، وبينى وبينكم الطبيب الشرعى ..

ــ انك تحرق مستقبلك ••

ــ أنا مسطول ، ككل يوم ، هل سمعتم عن مسطول ألقى قنبلة ؟

ــ حيلة صبيانية للهرب •

ــ أنا أيضا مدمن ، ولم أضرب المأمور أو ألقى قنبلة ؟ !

ــ حذار يا أيوب ••

ــ لماذا •• لماذا ، عمرى ما شغلت نفسى بسياسة ، ولا بدستور ٩٣٠ أو دستور ٩٢٣ ، ولا هتفت مرة واحدة ، هاتوا الطبيب الشرعى ••

ــ طاوعنى واعترف ، والأسماء تحت يدك والصور ••

ــ صدقونى لا عمل لى فى الدنيا الا حفظ الوثائق القديمة واستحلاب ربع قرش كل يوم ، هاتوا الطبيب الشرعى واسألوا الناس جميعا ••

★★★

وانقضى عام قبل أن يرجع أيوب مرة أخرى الى دكان عم محسن الكواء • وجهت اليه تهمة القاء قنبلة أمام المحكمة المختلطة • نشرت صورته فى الجرائد • عده الشعب بطلا فدائيا • تقدم للدفاع عنه نخبة من كبار المحامين • حكمت المحكمة ببراءته ودوت القاعة بالهتاف • ولما عاد الى دكان

الكواء تعانقا عناقا حارا طويلا ، ثم اتخذ مجلسه المعتاد أمام الدكان ، وقال محسن تحية ومودة :

ــ عندى صنف يا هوه !

فضحك أيوب وقال :

ــ مضى عام بلا كيف حتى نسيته ..

ــ آن لك أن تتذكر ..

فلم ينبس بكلمة فقال محسن بدهشة :

ــ الله يجحمهم ! .. لقد تغيرت حتى ما أكاد أعرفك يا أيوب افندى ..

فابتسم دون أن يتكلم فقال الآخر مشجعا :

ــ ولكن كثيرين يحبونك اليوم ويعظمونك !

فضحك ضحكة بريئة سعيدة فاستطرد عم محسن :

ــ ولا يصدق أحد بأنك مدمن ولكنهم يؤمنون بأنك ضربت المأمور وألقيت القنبلة ..

فقال بفخار :

ــ كانت المحاكمة قنبلة !

فتساءل محسن بارتياب :

ــ وماذا تنوى بعد ذلك ؟

فتفكر قليلا ثم قال :

ـــ أشار على بعضهم بأن أرشح نفسى فى الانتخابات القادمة !

نظر محسن نحوه بذهول وقال :

ـــ لكنهم يعرفون صاحب القنبلة !

ـــ ولو ! •• قالوا اننى رفضت أن أشترك فى تلفيق تهمة ضد أحد منهم ••

ـــ ولكنك لا تهتم بشىء فى هذه الدنيا ؟ !

فقال وهو يبتسم :

ـــ لقد تزوجت الاهتمام فى الحبس الاحتياطى والمحكمة •

صُورَة

يسرى عبد المطلب يتناول فطوره المكون من قطعة من الجبن القريش والخبز المحمص وفنجال قهوة ، وفى قبالته جلست زوجته منهمكة فى مطالعة الجريدة • وتنفس جو الشقة هدوءا كهدوء الشيخوخة ، هو طابعها دائما أبدا • عدا أيام الزيارات التى يحييها الأبناء • وقربت المرأة الجريدة من عينيها فى اهتمام طارىء ولكن الرجل رمقها فى غير اكتراث ، ونادرا ما يثير اهتمامه شىء مذ أحيل الى المعاش • وتمتمت المرأة فى رثاء :

ـــ مسكينة !

وقال لنفسه : دائما صفحة الحوادث أو صفحة الوفيات !. • ومدت له يدها بالجريدة وهى تقول فى حسرة :

ـــ شابة ، وجميلة ، •• انظر ••

يا فتاح يا عليم • جثة ملقاة على الرمال ، الوجه واضح المعالم ، وسيم يافع ، مغمض العينين الى الأبد • ونظر فى الجريدة دون أن يتناولها وتساءل :

ـــ قتيلة ؟

ــ فى الصحراء ، وراء الهرم ، مؤخر الرأس مهشم ، لم يسرق منها شيء ، مجهولة ..

فقضم لقمة وهو يقول :

ــ قصة قديمة معادة .

ــ لكنها لم تسرق !

ــ حب ، زفت ، أى شيء ، لم تقتل طبعا بلا سبب .

ــ جميلة وشباب المسكينة .

وأمعنت النظر فى الصورة وقالت :

ــ يا قلب أمها !

ووضعت الجريدة على السفرة واستطردت :

ــ انى أعجب كيف يقدم انسان على قتل انسان !

فقال باسما :

ــ لا تنكرى انك عاصرت حربين عالميتين وعشرات الحروب المحلية .

ــ الحرب شيء آخر ، ليس كأن تقتل انسانا وجها لوجه ، بقصد وغدر وقسوة ، والمسكينة ولا شك ذهبت مع القاتل وهى مطمئنة ..

ــ اللعنة ، ولماذا ذهبت معه ؟

تنهدت المرأة قائلة :

ــ الله أعلم ، والله غفور .

★★★

وفى شقة بالعمارة رقم ٥٠ بشبرا كانت فتاة تنظر الى صورة القتيلة بذهول ، لا تكاد تصدق عينيها ؛ ثم هرعت الى أمها بالجريدة اهتفة

ــ ماما •• انظرى !

نظرت الأم الى الصورة ؛ وقرأت الخبر ، ثم رفعت عينيها الى ابنتها متسائلة فقالت هذه بانفعال :

ــ شلبية يا ماما ، ألا تذكرين شلبية ؟ !

أعادت المرأة النظر الى الصورة بامعان حتى اتسعت عيناها دهشة وانزعاجا وصاحت :

ــ يا ربى ! ، هى هى شلبية ، شلبية دون غيرها ••

قالت الفتاة برثاء وتأثر :

ــ كانت عندنا منذ خمس سنوات ••

ــ أجل ، ترى كيف ولما قتلت ؟ !

غمغمت الأم بكلام غير مفهوم ، ولم يسكن انفعال الفتاة فقالت :

ــ كانت طيبة جدا يا ماما ، تتلقى أى أمر بصبر وابتسام ، وكانت تغنى فى الحمام أغانى ريفية بصوت ساذج لطيف ••

ثم بنبرة كالعتاب :

ــ وقد طردناها بلا سبب !

ــ هى مسكينة ، ربنا يرحمها ، ولكنا لم نظلمها ••

ـ كانت لطيفة وساذجة ومؤدبة ولكنى لم أدر لأى سبب طردت ••

فقالت الأم بوجوم :

ـ لم تطرد بلا سبب ، وكل شىء قسمة ونصيب •

فتنهدت الفتاة قائلة :

ـ لعلها لو بقيت عندنا لما ••

فقاطعتها بحدة :

ـ أنت مجنونة ! •• أليس كل شىء بارادة الله ؟

فانخفض صوتها وهى تقول :

ـ مسكينة ، كنت أحبها ، وبابا لم يرغب أبدا فى طردها ••

وقطبت الأم عند ذكر « بابا » ، وغامت عيناها بذكريات مقلقة فيما بدا وقالت بصوت جاف :

ـ كفى ، الله يرحمها وكفى ••

وأعادت النظر الى الصورة وتمتمت

ـ لبست الملابس بملابس خادمة ••

ـ لعلها ••

فقاطعتها قائلة :

ـ ليكن السبب ما يكون ، ولكننى لم أظلمهـا ، والله يرحمها ••

وساد صمت ، ثم قالت الفتاة :

ــ البوليس يناشد من يتعرف على الصورة أن يتقــدم للادلاء بمعلوماته ٠

فقالت الأم بحزم :

ــ لقد انقطعت صلتها بنا منذ خمسة أعوام ، ولن نفيد التحقيق شيئا ، وأنت لا تتصورين المتاعب التى يتعرض لها من يذهب الى البوليس ٠

ورمت بالجريدة بعيدا وهى تقول :

ــ أى صباح هذا يا ربى !

★★★

ووقع بصر السيد أنور حامد على الصورة وهو يتصفح الجريدة فى فترة استراحة قصــيرة فى أثناء عمله بادارة التفتيش ٠ حملق فيها بانزعاج لم يخف عن زميله فى الحجرة فسأله :

ــ خيرا ان شاء الله ؟

فطوى الجريدة وهو يتمالك نفسه قائلا :

ــ صديق توفى ٠

ولكن اجتاحه اضطراب لم يفارقه طوال الوقت ٠ شلبية العاملة بالشغل ٠ الجميلة العذراء ٠ التى اضطر آخر الأمر الى أن يتزوج منها زواجا عرفيا ٠ وبسوء نية اشترط عليها ألا تنقطع عن العمل ٠ ولما حملت اغتصب منها موافقة على الاجهاض ٠ وقالت وهى تبكى :

ـــ أنت لا تحبني ولا تعدني زوجة •

فقال ملاطفا :

ـــ بل أنت زوجتي ولكنني لا أريد خلفا !

ولما تنغص العيش في الأيام التالية حزم أمره وسرحها وصديقه عبيد رئيس الحسابات كان الشاهد وحافظ السر • ومن شدة اضطرابه انتقل الى حجرته فأطلعه على الصورة • وهز الرجل رأسه وتمتم :

ـــ مسكينة ، ترى كيف قتلت ؟

ـــ سنعرف غدا أو بعد غد . وليس من العسير تخيل ذلك •

وتبادلا نظرة لم يرتح لها أنور حامد كثيرا فقال :

ـــ كانت عنيدة فماذا كان يمكن أن أفعل ؟ !

فقال المدير بنبرة مخففة :

ـــ كانت تحبك جدا ورغبت في الأمومة ••

ـــ ولكن الناس والأهل ! •• لا يخفى عليك ذلك •

ـــ طبعا ، فليغفر الله لنا جميعا !

امتعض مليا ، ثم تساءل :

ـــ هل أذهب الى البوليس ؟

ـــ أظن هذا ••

ـــ ولكن ألا يجر ذلك الى متاعب وأنا شارع في الزواج ؟

فتفكر الرجل قليلا ثم قال :

ــ اذن لا تذهب ، واذا جاء ذكرك فى التحقيق مستقبلا فادع أنك لم تر الصورة .

***

ولم يطلع حسونة المغربى على الصورة الا حوالى العصر وهو موعد استيقاظه من النوم عادة كل يوم . وفرك عينيه كأنما لا يصدق ، وقال :

ــ درية ! .. يا الشيطان ..

وأدام النظر الى الصورة ثم غمغم :

ــ لماذا قتلت ؟ !

ومضى الى الحمام وهو يتجشأ حموضة الخمر ، وسرعان ما استرد هدوءه فقال :

ــ ولكنك شيطانة مجرمة !

ثم مواصلا وهو يغسل وجهه :

ــ الجزاء من جنس العمل .

وراح يحلق ذقنه ويقول وكأنه يخاطب صورته فى المرآة :

ــ عرفتك مطلقة ذليلة ، بعد أن جربت شهامة الأفندية ، أعطيتك الحب وجعلتك نجمة فى هذا البيت ، وعشقك أحسن ناس فى البلد ، وماذا كان الجزاء ؟ .. هربت ، أجل هربت لكى تقتلى فى الصحراء ، فالى الجحيم ..

وحوالى التاسعة مساء جاء الرجال وجلسوا حول مائدة



جعلتك نجمة فى هذا البيت ، وعشقك أحسن ناس فى البلد.

القمار ، ودارت عنايات وبهيجة بالويسكى والمزات . وعلموا بالخبر فقال فهمى رمضان .

ــ قد تجر الى التحقيق يا حسونة ..

فقال باستهانة :

ــ لكننى لم أرها منذ عام ..

ــ ولو ...

وقال سعيد الامام بحذر :

ــ من الحكمة أن نمتنع عن الحضور حتى يقبضوا على القاتل ..

فصاح حسونة بقلق :

ــ لا شأن لى بالجريمة ..

فقال حسنى الدينارى :

ــ اذهب الى البوليس وأدل بمعلوماتك ..

فتساءل الرجل بذهول :

ــ أتريدنى على أن أعترف بأنها كانت تعمل هنا ؟ ..

فقاطعه :

ــ كلا .. قل فقط انها كانت صديقتك واختفت منذ عام ..

ــ واذا سئلت عن عملى .. أو بطاقة الشخصية .. أو تحروا عن مسكنى ؟ !

ــ فى السكوت خطر أفدح ..

فلوح بيده بغضب وسخط وهتف :

ــ كان ضرورى تقتل لتربك حياتى !

فقال الرجل فى غيظ :

ــ يا ما نصحتك ! •• ولكنك كنت وحشا فى معاملتها ! كنت وحشا رغم تفانيها فى حبك ••

***

واستيقظت فتحية السلطانى حوالى المغرب فى الحجرة التى تقيم فيها مع دولت ونعمات وأنيسة وعلية • وكانت درية (شلبية) أول ما خطر ببالها • وانفجر فى رأسها بركان من الغضب لم يفارقها طيلة الوقت الذى قضته فى الحمام ، وهى تغير ريقها ، ثم وهى واقفة أمام المرآة تتبرج :

ــ الخنزيرة •• الكلبة •• ماذا تظن بنفسها !

وتثاءبت دولت وقد أدركت من تعنى وقالت وكأنما تعتذر عن الأخرى :

ــ كانت سكرانة !

ــ ولو ! •• انها تشرب البرميل فلا يدور لها رأس •

ونسيت الموضوع دقائق وهى تروض شعرها المتمود ثم عادت تقول :

ــ نظرت الى من فوق ! •• العفو •• العفو يا مولاتى !•• أنسيت عرشك تحت الجاموسة ؟

وقالت نعمات :

ـــ كانت سكرانة وهى غير معتادة ، ورغبت فى مداعبتك ، ترى أين باتت ليلتها ؟

ـــ فى أى داهية مع أى جربوع . وستعرف الليلة من أنا !

وذهبت أول الليل فتجولت طويلاً على كورنيش النيل دون ثمرة ، ثم قصدت حلوانى كوكب الشرق فاتخذت مجلسها المعهود بالدور الثانى . وأخذت ترامق الموجودين وتنتظر . ومن آن لآخر تنظر نحو المدخل وهى تتوثب للقاء غريمتها . ولما مر النادل سألته :

ـــ آلم تر درية ؟

فأجاب دون أن يتوقف :

ـــ زمانها جاية .

★★★

وأمضى عادل اليوم متسكعا بين الحدائق على شاطىء النيل . ثم يذهب الى الكلية ولم ينم ليلة أمس ساعة واحدة . وتأبط الجريدة وكلما وجد نفسه فى خلاء فتح صفحة الحوادث وأدام الى الصورة النظر . وقال انه سيسقط آخر الأمر من شدة الاعياء ، وقال ان ريقه جاف ومرّ وتنفســه بطىء . وها هى الزوبعة الهوجاء قد سكتت ، والألسنة المندلعة قد خمدت ، والنية المبيتة قد نفذت ، ومع ذلك فلا يشعر مطلقا

بأنه حقق مطلبا أو بلغ أملا • لا شيء ، خواء ، انهيار ، وقد قضى عليك • ولا مهرب ، فان يكن البقاء خطرا فالهرب أشد ، وأين تهرب • وكم من راء يحتمل أن يكون رآك وأنت ماض بها ، رخيل اليك أن صوتا ناداك فى المرقى الى الهرم ، وفضلا عن هذا وذاك فالبوليس كالهواء يملأ الأماكن المغلقة •

ـــ الى أين تسير بى ؟

ـــ ما أجمل أن نبتعد فى الصحراء •

هم يسألون عنك فى الكلية • وينتظرونك حول البيت • ما أعجزنا عن أن نرجع دقيقة واحدة الى الوراء •

ـــ درية •• أنت دائما تكذبين !

ـــ أنا لا أكذب ولكنك لا تصدق •

ـــ كم أحببتك من كل قلبى ولكنك لا قلب لك ••

ـــ ما أشد الظلام حولنا •

ـــ قاسية كالحجر ••

ـــ عادل •• صوتك متغير •• وأنا لا أحب الظلام •

ـــ لن ترى بعد الساعة الا الظلام ••

انتهى كل شيء • وها أنت تنكلين بى فى موتك كما نكلت بى فى حياتك • لم تكونى امرأة ، ولا آدمية ، ولم ينبض قلبك بالحب أبدا • قوة شريرة خلقت من الشر لتمارس الشر ••

•

صَوتٌ مُزعج

كان مجلسه الصباحى بكازينو الشجرة . يحسى القهوة ويدخن سيجارة . ينظر الى مياه النيل الساكنة أو ينظر الى سماء يوليو الصافية والباهتة من حدة اشعاع الشمس ، ويفكر بقلق ، ويغمض عينيه امعانا فى التفكير ، ثم يفتحهما فيرى كراسته المفتوحة على صفحة بيضاء وقلمه الرصاص مطروحا عليها بالعرض رهن الاشارة . ويجيل بصره فى الحديقة فيرى اثنين هنا واثنين هناك . ولا أحد ثمة غيرهم ، والنادل نفسه قعد فوق السور المطل على النيل فى شبه عطلة . هو وحده يجىء للعمل ، ليستوحى نهار يوليو الشاكس المعاند موضوعا جديدا يملأ به صفحة « أمس واليوم » بمجلته الأسبوعية . وهو موضوع يجب أن يتجدد أسبوعا بعد أسبوع ، والى ما لا نهاية ، وعلى توفيقه فيه تعتمد سعادة شقته الأنيقة وزوجته وطفله البالغ عامين وسيارته الأوبل فضلا عن جارسنييرة بعمارة الشرق معدة للطوارىء .

ـ يا سماء جودى بالأفكار ..

وامتد بصره من خلال النظارة الى قصر قائم قبالته على الشاطىء الآخر . مغلق النوافذ والأبواب ، متوهج الجدران

بالأشعة المتدفقة ، ولا حركة واحدة تدب فى ركن من أركانه ، حتى أشجاره استكنت وجمدت كأنها تماثيل •

ــ أن تعيش فى قصر ! ، غير مطارد بمطـــالب الرزق ، ولا هم لك الا التأمل !

وتنهد وقال وهو ينظر الى نفاية القهوة الراسبة فى قعر الفنجان :

ــ عندى أفكار ، عندى مشروعات ، ولكننى أبدد العمر فى تسجيل ملاحظات شارغة واقتراح حول معروفة لمشكلات معروفة ، •• أف ••

وباغته صوت رقيق من فوق رأسه تائلا

ــ أستاذ أدهم ، صباح الخير ••

التفت الى الوراء مـــداريا انزعاجه بابتســـامة ثم قام مستخلصا نفسه من أفكاره

ــ نادرة ! •• فرصة سعيدة حقا •

تصافحا ثم جلست تجاهه وهى تضع حقيبتها البيضاء فوق الصفحة البيضاء •

ــ رأيت ظهرك من الطريق فعرفتك •

ــ متى تعرفيننى من وجهى كما تعرفيننى من ظهرى ؟

فقالت مازحة :

ــ ولكن وجهك مطبوع فى صدرى !

ورنا طيلة الوقت الى بنائها الدقيق التكوين ، ووجهها المتألق بالصبا ، ورغم تلاحم الطفولة بالشباب فى عمرها فان الزخرف شمل بشرتها والعينين والجفنين والرموش والأظافر والحاجبين . وسألها دون اكتراث لمزاحها :

ـ كنت ذاهبة الى ميعاد أم راجعة ؟

ـ لا أحب مواعيد الصباح ولكنى كنت أتسكع بالسيارة بلا هدف .

بلا هدف ! اصـطلاح وبائى . غير أنك فى الخامسة والثلاثين وهى فى السابعة عشرة . وهى متحررة لدرجة تثير اعجاب أى شخص يملك جرسنييرة . وقارئة مولعة بفرانسوا ساجان . وكم أثارت دهشته ليلة تعرف بها فى مجلس من الزملاء بسان سوسى . محدثة بارعة فى الفن والحياة ولا تجد بأسا عند الضرورة من التندر بنكتة مكشوفة . وهى تدرس السيناريو مذ أهملت دراستها الجامعة ولعلها تتطلع الى سماء النجوم . ولها محاولات فنية فشلت رغم جمالها فى نشرها بالمجلة أو الاذاعة . وفى آخر لقاء معا وبحضور بعض الزملاء أعلنت اعجابها بالوجودية الالحادية ! .

ـ ماذا أطلب لك ؟

ثم مستدركا بلهجة شبه جدية

ـ أم نؤجل ذلك لحين ذهابنا الى شقتى الخصوصية ؟

ـــ اطلب قهوة ، ولا تحلم ••

قدم لها سيجارة وأشعلها ، وراحت تشرب القهوة غير مكترثة لالحاح عينيه حتى سألها مداعبا :

ـــ كيف حال القلق الوجودى ؟ !

ـــ عال ، ولكننى لم أنم أكثر من ساعتين •

ـــ فكر وفلسفة ؟

ـــ شجار مع ماما وبابا كما تعلم •

تذكر بقلق الموضوع الذى جد في البحث عنه أما هى فاستطردت مقلدة لهجة الوالدين :

ـــ كملى تعليمك •• تزوجى ••• لا تسهرى كالشبان ••

أسطوانة معادة • لكن البنت جميلة والجلسة موحية • ومن يدرى ؟ ! ! غير أنه يجب الانتهاء من الموضوع اليوم ولو ألغيت مواعيد المساء • وتساءل :

ـــ من أين لهما أن يفهما فيلسوفة صغيرة ؟

حذرته بتقطيبة من التمادى فى العبث ، وقالت :

ـــ لا يريد أحد أن يعترف بأننى أجاهد لتكوين نفسى ، ولكننى أعاشر أهل الكهف !

وتذكر أكثر من حديث لوالدها فى التلفزيون فقال :

ـــ ولكن والدك رجل عصرى •

ـــ عصرى !

ــ على الأقل بالقياس الى والدى •

وهى تدارى ضحكة :

ــ بالقياس الى العصر الحجرى ؟

رمى بنظرة الى بعيد كالحالم وقال بافتتان :

ــ العصر الحجرى ! •• لو نرجع اليه ساعة واحدة لحملتك على كتفى دون زاجر ولمضيت بك الى كهفى بعمارة الشرق !

ــ قلت لك لا تحلم ، ودعنى أحدثك فيما جئت من أجله ••

ــ آه •• اذن لم نتقابل مصادفة ؟

ــ أنت تعرف أننى أعرف أنك تكتب هنا كل صباح •

فقال بجدية مازحة :

ــ اذن هيــا بنا الى عمارة الشرق لنجد مكانا مناســبا لحديث هام !

أشعلت سيجارة من سيجارة وقالت :

ــ ألا ترى أننى لا أهزل ؟

ثم وهى تحدجه بنظرة ثاقبة من عينيها الصافيتين كالشهد :

ــ وعدتنى مرة بأن تعرفنى بالأستاذ على الكبير •

فقال باهتمام :

ــ أكنت جادة ؟

ــ كل الجد •

ــ لا شك أنك معجبة به كممثل !

ـ طبعا ..

وتبادلا نظرة ثم قال :

ـ انه فى الخامسة والأربعين !

ـ مفهوم ، ألم تسمع عن سحر الزمن ؟

ـ كلا ، ولكننى سمعت كثيرا عن مأساة الزمن .

ـ قد تدمل كواعظ فى صفحة « أمس واليوم » ، أما هنا .. ؟ !

ـ وما دورى أنا فى القصه ؟

ـ أنت صديقة الأول .

ـ له بنت فى سنك .

ـ أجل . أظنها بكلية الحقوق ..

وتفكر مليا ثم سأل :

ـ كاشفينى بأفكارك ، هل تفكرين مثلا فى تخريب بيته والزواج منه ؟

ندت عنها ضحكة وقالت :

ـ لا أفكر بتاتا فى الخراب .

ـ مجرد حب ؟

فهزت منكبيها دون أن تنبس .

ـ طريق الى الشاشة ؟

فقالت بازدراء :

ـ لست انتهازية •

ـ واذن ؟ !

ـ عليك أن تفى بوعدك •

وثمل رأسه بفكرة طارئة فهتف :

ـ ألهمتنى موضوعا !!

ـ ما هو ؟

فكر بأناة ثم قال :

ـ حرية الحب بين الأمس واليوم •

ـ زدنى •

فقال مدفوعا بعنف لم يحاول هدهدته :

ـ اليك مثالا من نقاط الموضوع ، قديما عندما كانت تزل فتاة كان يوصف سلوكها بالسقوط ، اليوم يوصف بأنه قلق العصر ، أو قلق فلسفى •

فقالت بحدة :

ـ أنت متحجر رغم ادعاءاتك المتقدمة •

ـ ماذا تتوقعين من خلف لسلف من العصر الحجرى ؟

ـ ألا تستطيع أن تنظر الى كانسان مثلك تماما ؟

ـ اذا كنت نرجسيا •

ـ ها أنت تهزل كما أن أبى يزعق •

ـ وأنت ؟

ـــ ما زلت أطالبك بالوفاء بوعدك •

ـــ دعينى أعطك فكرة عنه أولا ، هو فنان كبير ، ممثل الشاشة الأول فى تقدير الكثيرين ، وله سياسة معروفة لا يحيد عنها ، فاذا تعرف الى فتاة مثلك أخذها من فوره الى مسكنه الخاص بالهرم ثم يبدأ من حيث ينتهى غيره •

ـــ أشكرك على جميل وصايتك •

ـــ أما زلت عند طلبك ؟

ـــ بلى ••

فقال متحديا :

ـــ حسن ، ولكنى أطالب بالثمن مقدما !

فتساءلت بحركة من رأسها اضطربت لها خصلة سوداء من شعرها معقوصة فى دائرة فوق حاجبها •

ـــ أن تشفينى بزيارة فى عمارة الشرق •

ابتسمت دون تعليق ، ودون تصديق •

ـــ موافقة ؟

ـــ أنا واثقة من أنك أنظف تفكيرا من ذلك •

ـــ لكنى مصاب بشىء من القلق العصرى !

ـــ لا •• لا تخلط بين الهزل والجد ؛

ثم بأسف :

ـــ بددت وقتك الثمين •

وأشعلت سيجارة ثالثة • وتبادلا نظرة طويلة • وابتسما معا • وعاود التفكير قليلا فى موضوعه • وصفا الجو تماما من سوء الظن • ورجع الاحساس المضطهد بالحرارة والرطوبة • وداعبته قائلة :

ــ أنت رجعى بقشرة عصرية •

ــ كلا ، أنت لا تصدقين نفسك • ولكنك ممتعــة وتلذ مداعبتك ، سيتم التعارف فى مكتبى بالمجلة فتعــالى يوم الأربعاء ــ مصادفة ــ الساعة التاسعة مساء •

ــ شكرا •

ــ أنا مدين لك بمقالة الأسبوع القادم •

ــ سأرى كيف تعالجه •

ــ ولكنى عند الكتابة أتقمص شخصية جديدة !

فضحكت قائلة :

ــ وتراعى حتما ما يجب أن يقــال ولو بالكــذب على ضميرك •

ــ ربما ، الحق ان خير ما فى لم يعبر عن ذاته بعد •

ولما رأته ينظر فى الكراسة أقلعت عن مناقشته • وأخذت حقيبتها الى كرسى خال • ومد بصره مرة أخرى الى القصر النائم الغارق فى فخامته المغلقة • أعجب بشرفته المتصــلة بالحديقة ، وأعجب أكثر بشرفة الدور الأعلى القائمة على

عمودين كمسانتين • ما أحلى الجلوس فى الشرفة فى ضوء القمر • والتفكير الحر غير المقيد بمواعيد ولا بتقاليد • أو يخت يطرف بك البحار لتعرف أناسا وبلدانا بلا حدود وتحت شرط أن تبقى زوجتك فى القاهرة • واللعب بالورد فى جزر هاواى • ونبذ موضوعات الأمس واليوم وسائر مشكلات الفقر والجهل والمرض • والتطلع للمجهول وطى التاريخ البشرى فى لحظة واحدة • وأنت لا تخلو من شك فى موهبتك ولكن الانفجارات تغطى على الشك • انفجارات غريبة مثيرة للدهشة متخطية لأى مسئولية ، لا تفهم ولا تسأل ويتعذر الحكم عليها ويتطوع المفسرون لتفسيرها من الحانات والغُرز •

ــ ما رأيك يا نادرة فى اللامعقول ؟

فقالت بحماس :

ــ معقول جداً !

ــ انه يلاعبنى كحلم •

ــ وأنا أفكر فى كتابة مسرحية لا معقولة لمسرح العرائس •

وتنهدت فى حسرة وقالت :

ــ لولا أبى لكتبت قصة جنونية عن تجاربى ••

وغلبه المزاح فقال :

ــ ويا حبذا لو تضمينى الى التجارب !

ـ لا تهزل وتخيل النجاح الجدير بها ..

وانطوت فترة تخيل ممتعة . وغابا فى صمت طويل .

وبغتة انفجر صوت حاد انخلع له قلباهما فى لحظة واحدة . صوت آدمى صاح « هـو » . ورأيا رجلا يشد مركبا مطوى الشراع ، كأنه واقف لا يتحرك ، أو يتحرك فى بطء شديد ثقيل كالوقوف ، يكاد يلتصق بالسور من الخارج ، متأخرا عن مجلسهما مترين ، ويجذب المركب بحبل طويل ملفوف حول منكبيه ، وهو يلقى بنفسه الى الأمام ، شادا على عضلاته بكل قوة واصرار ، والمركب تزحف أبطأ من سلحفاة فوق ماء راكد وفى هواء ميت ، وقد نهض فى مقدمتها عجوز مجلبب معمم تابع صراع الآخر ببصر كليل واشفاق . ذهب الرعب وحل محله فى صدريهما حنق وغيظ ولكنهما لم ينبسا بكلمة . وظل الرجل يهب عمله الشاق جميع حيويته فى عنـــاء مضن حتى حاذى مجلسهما . شاب فى العشرين ، غامق اللون ، غليظ القسمات ، عارى الرأس حليقه ، حافى القدمين ، يرتدى جلبابا لا لون له ، يكشف عن أعلى الصدر ، وينحسر عن ســاقين بارزتى العروق من الحزق . وقد جحظت عيناه ، وتصلب شدقاه ، وأحنى رأسه ليجنب وجهه شمسا حامية . وكلما أعياه الجهد توقف لحظة ليأخذ نفسا عميقا فيصيح به العجوز :

ـــ شد حبلك .



ورأيا رجلا يشد مركبا مطوى الشراع ، كأنه واقف لا يتحرك!

فيصيح بدوره :

ـــ هُوْ .

ويواصل نضاله القاسى الفظ . وفى الدقائق التى حاذاهما فيها لفحتهما رائحته الآدمية الملبدة بالعرق والتراب فتقلص وجهماهما ، وأخفت نادرة أنفها الدقيق فى منديل معبق بشذا جميل ، ولكنهما تجاهلا تقززهما وانزعاجهما وهما يراقبان النضال الأليم . وراقباه خطوة خطوة حتى أرهقتهما المشاركة فحولا عنه عينيهما . وتبادلا نظرة ، ثم ابتسما فى رثاء ، وأشعلا سيجارتين .

شهرزاد

— ١ —

ــ ألو .

ــ الأستاذ محمود شكرى ؟

ــ نعم يا فندم ، من حضرتك ؟

ــ لا تؤاخذنى على ازعاجك دون سابق معرفة .

ــ العفو . ممكن أتشرف ؟

ــ الاسم غير مهم ،ولكنى واحدة من الآلاف اللاتى يعرضن عليك مشاكلهن ..

ــ تحت أمرك يا آنسة .

ــ سيدة من فضلك .

ــ تحت أمرك يا سيدتى ..

ــ ولكن حكايتى طويلة .

ــ لعل من الأفضل أن تكتبى لى ؟

ــ ولكنى لا أحسن الكتابة .

ــ هل تتفضلين بزيارتى فى المجلة ؟

ــ لا أجد الشجاعة الكافية ، على الأقل الآن !

وقف انتباهه عند « الآن » لحظات • ابتسم وهو يستطعم صوتها الرخيم ، ثم تساءل :

ـ واذن ؟

ـ أطمع فى أن تأذن لى بدقائق كل يوم أو كلما سمح وقتك الثمين ••

ـ طريقة طريفة ، تذكرني بطريقة شهر زاد !

ـ شهر زاد ! اسم جذاب ، اسمح لى باستعارته اسما لى مؤقتا •

فضحك وقال :

ـ ها هو شهريار يصغى اليك •

ضحكت أيضا فوجد ضحكتها ممتعة كصوتها ، أما هى فتابعت :

ـ لا تتوقع أن أعرض عليك مشكلة معينة محددة ، انها حكاية طويلة كما قلت لك ، وهى تعيسة أيضا ••

ـ أرجو أن تجدينى عند حسن ظنك •

ـ وأرجو أن توقفنى بأى طريقة اذا جاوزت الوقت الذى تهبه لى ••

ـ تحت أمرك •

ـ ولكنى أخذت اليوم من وقتك قدرا لا يستهان به فلنؤجل الحديث الى غد ، حسبى الآن أن أعترف لك بأن قلمك الانسانى هو الذى جذبنى اليك •

ـــ شكراً •
ـــ ليس قلمك فقط ولكن صورتك أيضا !
تساءل باهتمام زائد :
ـــ صورتى ؟
ـــ أجل ، قرأت فى عينيك الواسعتين نظرة ذكية رحيمة انسانية جديرة بأن تدعو الملهوفين على العزاء ••
ـــ أكرر الشكر •• (ثم وهو يضحك) •• كلامك لطيف كأنه غزل •
ـــ انه اعراب عن أمل أن يكن فى الدنيا ـــ بعد ـــ أمل •
أعاد السماعة • ابتسم • قطب مفكرا ، عاد يبتسم •

***

— ٢ —

ــ آلو ..

ــ شهرزاد !

ــ أهلا ، أنا في انتظارك .

ــ سأدخل في الموضوع رأسا كيلا أضيع وقتك .

ــ ها أنا مصغ اليك ..

ــ نشأت يتيمة الأم ، وقد تزوج والدنا ــ أعنى أنا وشقيقة تصغرنى بعامين ــ فأمضينا طفولتنا وصبانا محـــرومتين من الحنان والعطف ، ولم ننل من التعليم الا القليل ، ولما مات والدنا انتقلنا الى بيت خالنا وكان لكل منا معـــاش حوالى الخمسة الجنيهات .

ــ لعله تاريخ قديم ؟

ــ بعض الشيء ولكنه ضرورى لا غنى عنه ، لم نكن سعداء فى بيت خالنا ، كان يعدنا عبئا حقيقيا ، شعرنا بغربة وألم ، نزلنا عن آخر مليم من معاشنا ، وقمنا بخدمة البيت دون اعتراض ، المسألة كانت سوء حظ لا أكثر ولا أقل ..

ـــ مفهوم ويا للأسف ..

ـــ ثم كان أن تقدم لطلب يدى ضابط ، وكنا ورثنا عن أبينا بيتا قديما فباعه خالى ؛ وجهزنى بنصيبى جهازا عاديا ، وقد فهم زوجى من أول الأمر حقيقة وضعنا فلم يتراجـــع ، والواقع أننا عشنا قصة حب كما تقولون واستمرت حتى فيما بعد الزواج ..

ـــ ترى هل ينم حديثك عنها ـــ قصة الحب ـــ على شىء من التحفظ ؟

ـــ ما علينا ، المصيبة أنه كان مسرفا ، ينفق ما فى الجيب بسفه ودون تقدير للعواقب ، ولم أعرف كيف أعالجه ، حاولت وحاولت ولكن بلا نتيجة ..

ـــ عن هذه النقطة .. أعنى .. ألا تتحملين شيئا من المسئولية ؟

ـــ كلا ، صدقنى كنت راغبة فى الحياة الزوجية حريصة عليها بكل قوة حبى وما قاســيت قبل ذلك من بؤس وذل ويأس ..

ـــ معقول !

ـــ كأنك لا تصدقنى ، ما زلت أذكر آراءك عن مسئولية الزوجة عن انحراف زوجها ، ولكن ماذا كان بوسعى أن أفعل ؟ توسلت اليه بالملاطفة والتحذير والاحتجاج ، طالبته باعطائى

المصروف الضرورى للبيت فى أول الشهر ، وكان جوابه المعتاد أن يجيئنى بزمرة من أصدقائه ، وهات يا أكل وهات يا شرب حتى مطلع الفجر ، نمسى فى وليمة ونصبح على الحديدة !

ــ وكيف كانت تمضى الأمور بقية الأيام ؟

ــ يطالبنى بأن ألجأ الى خـــالى وكان ذلك مســـتحيلا ، أو أن أقترض من أختى وكان ذلك مستحيلا أيضا اذ كانت موشكة على الزواج ، ومن ناحية أخرى كان هو يقترض من أهله ، فانقلبت حياتنا مسخا مزريا يستحق الرثاء !

ــ هذا حق ..

ــ فشل الزواج وانتهى الى مصيره المحتوم وهو الطلاق ، فانتقلت الى بيت أختى وقد خسرت معاشى لأعانى حياة مريرة ذليلة ..

ــ لعل هذه هى المشكلة ؟

ــ صبرك ، نحن ما زلنا فى الماضى ، ولن أطيل عليك فقد دعانى زوجى ــ مطلقى ــ بعد مرور عام على طلاقنا لمقابلته ، كاشفنى برغبته فى استئناف حياتنا الزوجية مؤكدا لى أن الحياة أدبته وهذبته ، ومضى بى الى بنسيون يقيم به فى شارع قصر النيل لنرسم خطة المستقبل ، وبمجرد أن رد باب حجرته ضمنى الى صدره مرددا أنه لم يذق للحياة طعما بعد فراقى ..

ــ واستسلمت ؟

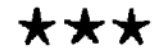
ــ لم أشعر بأننى أعامل رجلا غريبا ، وجعلنا نناقش أكثر الوقت اجراءات زواجنا من جديد ، وافترقنا وهو يعدنى بزيارة خالى فى اليوم التالى مباشرة •

ــ صوتك يهبط ويتغير ؟

ــ أجل ، ثبت لى بعد ذلك أنه دعانى الى مقابلته وهو كاتب كتابه الثانى ، وتمت دخلته بعد لقائنا بأسبوع ، وأن المسألة كانت مجرد نزوة أراد أن يتحرر منها قبل أن يبدأ حياته الجديدة ••

ــ يا له من وغد ••

ــ أجل ، ولكنى لن أثقل عليك أكثر من ذلك ، فالى اللقاء ••



- ٣ -

ـ ألو ..

ـ شهر زاد .

ـ أهلا .

ـ ترى هل أضايقك ؟

ـ بالعكس ، استمرى من فضلك .

ـ أقمت عند أختى زمنا ولكننى شعرت مع الأيام بأنها اقامة غير مرغوب فيها !

ـ لم ؟

ـ ذاك كان شعورى وهو لم يخطىء ..

ـ كيف وهى أختك التى قاسمتك فى الماضى العذاب ؟

ـ قدَر فكان !!

ـ زوجها ؟ !!

ـ تقريبا !

ـ ضاق بوجودك فى مسكنه ؟

ـــ تقريبا ؛ المهم أننى اضطررت الى مغادرة البيت ابقاء على رابطة الأخوة ..

ـــ ولكنك لم تذكرى السبب صراحة ، دعينى أخمن لعلها الغيرة ؟ !

ـــ وهم الغيرة وهو الأصح !

ـــ ذهبت الى خالك ؟

ـــ كان قد توفى ، فاستأجرت شقة صغيرة ..

ـــ ولكن من أين لك بالنقود ؟

ـــ بعت ما يمكن بيعه من جهازى ، ورحت أبحث عن عمل ، أى عمل ، كانت فترة بحث عقيم وجوع ، صدقنى لقد عرفت وحشية الجوع ، كان اليوم يمضى بلا طعام أو بلا طعام يذكر ، ووجدتنى سألبى مرة ما احدى الدعوات ـــ اياها ـــ التى توجه الى فى الطريق ولكنى كنت أؤجل الاستسلام آملة أن تدركنى رحمة الله قبل أن أهوى ، وكنت أطل من النافذة فى سكون الليل فأنظر الى السماء وأهتف من أعماقى « يا الهى الرحيم ، انى جائعة .. انى أموت جوعا » وكنت أزور أختى كلما خارت قواى لأتناول وجبة متكاملة ، ولكن أحدا لم يسألنى عن حالى خشية أن يحمله الجواب مسئولية يريد أن يتجاهلها !

ـــ فظاعة لا تصدق ..

ـــ ويوما قرأت اعلانا يطلب مدبرة منزل لرجل عجوز نظير أجر غير الاقامة والغذاء والكساء ..

ـ نجدة من السماء .

ـ سارعت اليه بلا تردد ، وأجرت شقتى ..

ـ نهاية رحيمة وبخاصة اذا كان العجوز فى حاجة للرعاية وحدها ، أعنى دون غيرها !

ـ كان طاعنا فى السن ، فخدمته باخلاص ، وأنا ماهرة بكل معنى الكلمة فى شئون البيت ، كنت الطاهية والخادمة والممرضة وحتى الجريدة كنت أقرأها له ..

ـ جميل .. جميل ..

ـ شبعت بعد جوع ، واطمأننت بعد خوف ، ودعوت الله أن يمد فى عمره الى الأبد ..

ـ ترى ماذا جدّ بعد ذلك ؟

ـ كنت أقرأ له الجريدة عندما وقع بصرى على اعلان يطلب مدبرة منزل لرجل عجوز ، ويحيل قارئه الى عنوان منزلنا !!

ـ كلا ! ؟

ندت عنه بدهشة واستنكار :

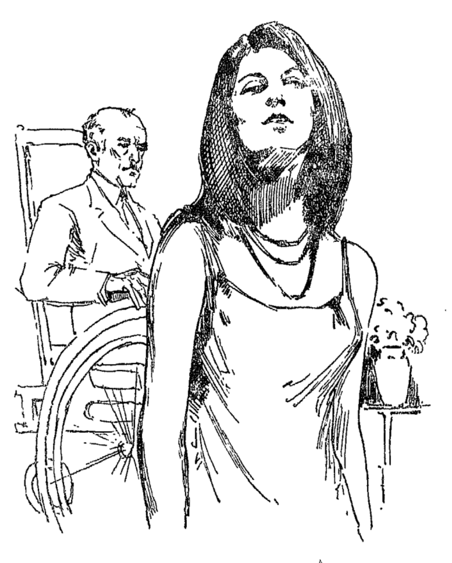
ـ بلى ، وقد ذهلت ، تلوت عليه الاعلان فحول عنى عينيه ولكنه لم ينكره ، سألته لم يريد الاستغناء عنى ، ماذا ضايقه منى ، ولكنه لم يفتح فمه ..

ـ شىء غريب حقا ، ولكن لابد من سبب ؟

ـ لا سبب من ناحيتى اطلاقا !

ـ ألم يكن بينك وبينه سوى التدبير المنزلى ؟ !
ـ تقريبا !
ـ ما معنى تقريبا ؟ ! .. صارحينى من فضلك ؟
ـ كان يطلب منى أحيانا أن أقف أمامه عارية !
ـ ورفضت ؟
ـ كلا .. أذعنت لارادته ..
ـ اذن لماذا يطلب أخرى ؟
ـ من أين لى أن أعلم ؟ ، قال انه رغب فى التجديد ، وأيا ما كان أمره فقد توسلت اليه أن يعدل عن رأيه ، قلت له اننى وحيدة وفقيرة وليس لى فى الدنيا سواه ، ولكنه أصر على الرفض والصمت ، بدا لى كريها كالموت ، فلم أجد بدا من الذهاب ..





سألته لم يريد الاستغناء عني ، ماذا ضايقه مني ؟

— ٤ —

ـــ ألو •

ـــ شهر زاد تحييك يا أستاذ !

ـــ أهلا أهلا ، حكايتك أصبحت شغلى الشاغل يا شهرزاد •

ـــ شكرا يا أستاذ ، الحق أن قلبى لم يخدعنى عندما دلنى عليك ، والآن فلنواصل حكايتنا ، عدت الى مسكنى وقلت لستأجره ـــ موظف بسيط فى الأربعين ـــ اننى فى حاجة اليه ، رفض فكرة اخلاء الشقة • ولما وقف على حقيقة حالى قال لى ببساطة « أقيمى معى ! » فلم أتردد فى القبول • الواقع ان ارادتى تحطمت وهان أى شىء ••

ـــ أفهمت من دعوته •• ؟

ـــ نزل لى عن احدى الحجرتين اللتين تتكون منهما الشقة • وكان كل شىء مفهوما بعد ذلك !

ـــ المرة الأولى ؟

ـــ نعم ، والحق أنه كان رجلا لطيفا ودودا وانسانا ••

ـــ عظيم ••

ــ صبرك ، فهى السجايا التى بسببها فقدته !

ــ حكايتك حكاية !

ــ قال لى ذات يوم : « أنت متعلقة بى وأنا كذلك ، وعليه فيجب أن نفترق ! » .

ــ نفترق ! ؟

ــ أجل « نفترق » .. توقعت أن يقول « نتزوج » ولكنه قال : نفترق !

ــ فوق ما يتصور العقل !

ــ استوضحته عما يعنيه فقال بلهجة قاطعة : « عندى من الأسباب ما يمنعنى من الزواج وعليه فيجب أن نفترق » ، فقلت له بضراعة : « لم أطالبك بالزواج ولن أطالبك به فلنبق كما نحن » ، فقال : « كلا ، انها حياة شاذة ، وستجدين نفسك يوما وحيدة طاعنة فى السن بلا مورد ولا حقوق فلا مفر من الافتراق » ..

ــ رجل غريب ، ظاهره طيب ، ولكنه أنانى أو ماكر ..

ــ المهم أنه ذهب فوجدت نفسى مرة أخرى وحيدة مهددة بالجوع ..

ــ يا للأسف ..

ــ ومررت بتجارب مرة ، أنت فاهم طبعا ، ولكننى سمعت عن قانون جديد للمعاشات يسمح باعادة المعاش للمطلقة أول مرة ، وتبين أنه ينطبق على ..

ــ حمدا لله !

ــ هو دون الكفاية بلا شك ولكننى اعتدت التقشف ، وقد تعلمت التفصيل ، فأصبح لى مورد رزق بسيط ، ولكنه ــ بالاضافة الى المعاش ــ حمانى من الموت جوعا أو التدهور فى الطرقات ..

ــ وصلنا أخيرا الى بر السلامة ..

ــ الحمد لله ، غير انى وصلت أيضا الى المشكلة الحقيقية !

ــ المشكلة الحقيقية ؟!

ــ انها تتلخص فى كلمة واحدة : الوحدة ..

ــ الوحدة ؟

ــ لا زوج ولا ابن ولا صديق ولا حبيب لى ، نهارى وليلى حبيسة شقة صغيرة محرومة من كافة أنواع التسلية ، وقد يمر شهر طويل لا أتبادل فيه كلمة مع مخلوق ، دائما كئيبة متململة مقطبة ، أخاف أحيانا أن أجن وأخاف أحيانا أن أنتحر ..

ــ لا لا ، لقد تحملت ما هو أمر من ذلك بشجاعة ، وسوف يرزقك الله يوما بابن الحلال ..

ــ لا تكلمنى عن ابن الحلال ، لقد طلب يدى رجل ؛ أرمل وأبو طفلين ، ولكنى رفضته بلا تردد . لم تعد لى ثقة فى أحد . والطلاق الثانى يعنى قطع المعاش وهو رأسمالى الحقيقى ..

ـ ولكن رجلا هو أب لطفلين لا شك يحرص على الزوجة بقدر حاجته اليها ..

ـ انى أمقت فكرة الزواج ، انها تقترن فى ذهنى بالغد والجوع ..

ـ عاودى التفكير ..

ـ مستحيل ، أى شىء الا الزواج ، لا شـجاعة عندى لدخول التجربة من جديد ..

ـ وكيف اذن تتخلصين من الوحدة !؟

ـ هذه هى المشكلة !؟

ـ ولكنك ترفضين حلا موفقا ؟

ـ أى شىء الا الزواج !

وتفكر قليلا ثم سألها :

ـ ما رأيك فى أن نتقابل ؟

ـ يحصل لى عظيم الشرف !

ابتسم . سرح به الخيال وهو يبتسم . انها بكل بساطة تدعـوه الى مصـادقتها وتطمئنـه فى ذات الوقت بأنهـا لن تطالبه يوما بالزواج . انه ليس غبيا ، وهو فى حاجة الى مغـامرة جديدة أيضـا . لم لا ؟ . المهم أن تكون جميلة كصوتها . ولكن ما حقيقة قصتها ؟ . قد تكون حقيقية ، لا شىء بمستحيل . وقد تكون مختلقة من أساسـها أو فى بعض

مضاعفاتها • السينما فجرت القوى الخلاقة فى النساء • قد
وقد وقد المهم أن تكون جميلة كصوتها وعند ذاك سأقدم لها
تجزبة جديدة تضيفها الى تجاربها السابقة ، لن تخلو من حلاوة
وستنتهى بالمرارة التى لابد منها لكل شىء فى هذه الدنيا •
وجعل يبتسم وهو ينقر على سومان مكتبه باصبعه •

***

وجاءت شهرزاد •

تفحصها بنظر ثاقب وهو يستقبلها ثم وهو يدعوها للجلوس • فى الثلاثين من عمرها • لا بأس بها بصفة عامة ، يلفها جو ينضح بالمرارة بطريقة ما • حتى نظرتها الباسمة لا تخلو من حزن ونضج أليم ولكنها فى جملتها لا بأس بها ، بل هى مقبولة لدرجة محترمة • ليس ببعيد أن تكون قصتها حقيقية ، ولعلها لم تكذب الا فى صياغة رأيها عن الزواج ؛ فهى لا يمكن أن تمقته ولكنها مضطرة لاعلان ذلك التماسا للصداقة التى تودها بحنين صادق غالبا •

لكن ما له هو وذلك كله ؟ • هى ليست بالمرأة التى تليق به • لا شكلا ولا موضوعا • لا فكرة لها ــ المسكينة ــ عن الفرص المتألقة المتاحة له • واذن فعليه أن يدارى خيبة أمله وأن يعاملها بجدية •

ــ أهلا أهلا ، الحق أن قصتك أثرت فى أعماقى ••

تنهدت قائلة :

ـ انى ممتنة يا أستاذ .

ـ ولكن عليك أن تواجهى حياتك بشجاعتك المعهودة ..

ـ ولكنى ..

فقاطعها قائلا وقد ألحت عليه رغبة مفاجئة فى انهاء المقابلة بأسرع ما يمكن :

ـ أصغى الى ، انك سيدة عظيمة ، من فضل الشقاء علينا أحيانا أن يجعل منا عظماء ، انك سيدة عظيمة ، وكنت عظيمة حتى فى عثراتك العابرة ، وأنت عظيمة فى وحدتك ، وستتحقق عظمتك أكثر عندما تقضين على وحدتك بضربة شجاعة فائقة ، سيدتى لا قيمة لحياتنا ، لا معنى لها ، لا جدوى من استمرارها الا بالايمان بالناس مهما يصيبنا من الناس ، والايمان بالله سبحانه وتعالى ايمانا لا يتزعزع مهما وكيفما جرت مقاديره !

ونظر فى عينيها فتلقى نظرة مغرورقة بالخيبة والاخفاق ، انها ذكية أيضا . أذكى مما قدر . وها هى تبتسم ابتسامة خفيفة ولكنها أخجلته لدرجة ما . وتمتمت :

ـ انى مؤمنة بالله يا أستاذ ..

فلوح بيده فى حماس وقال :

ـ كل ما عداه باطل ، سبحانه وتعالى ..

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب		تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعه	
مصر القديمة		١٩٣٢		
همس الجنون	مجموعة	١٩٣٨	العاشرة	١٩٧٩
عبث الاقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩	العاشرة	١٩٨٢
رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣	العاشرة	١٩٨١
كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤	العاشرة	١٩٧٩
القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥	الثانية عشرة	١٩٨٤
خان الخليلى	رواية	١٩٤٦	العاشرة	١٩٧٩
زقاق المدق	رواية	١٩٤٧	العاشرة	١٩٨٢
السراب	رواية	١٩٤٨	الثانية عشرة	١٩٨٤
بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩	الرابعة عشرة	١٩٨٤
بين القصرين	رواية	١٩٥٦	الثانية عشرة	١٩٨٣
قصر الشوق	رواية	١٩٥٧	الثانية عشرة	١٩٨٤
السكرية	رواية	١٩٥٧	الحادية عشرة	١٩٨٤
اللص والكلاب	رواية	١٩٦١	التاسعة	١٩٨٠
السمان والخريف	رواية	١٩٦٢	الثامنة	١٩٨٤
دنيا الله	مجموعة	١٩٦٣	الخامسة	١٩٧٨
الطريق	رواية	١٩٦٤	الثامنة	١٩٨٤
بيت سيء السمعة	مجموعة	١٩٦٥	السابعة	١٩٨٣
الشحاذ	رواية	١٩٦٥	السابعة	١٩٨٢
ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦	السادسة	١٩٨٣
ميرامار	رواية	١٩٦٧	الخامسة	١٩٧٩
خمارة القط الاسود	مجموعة	١٩٦٩	السابعة	١٩٨٥
تحت المظلة	مجموعة	١٩٦٩	السادسة	١٩٨٤

اسم الكتاب		تاريخ اول طبعة	تاريخ آخر طبعه	
حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة	١٩٧١	السادسة	١٩٨٤
شهر العسل	مجموعة	١٩٧١	السادسة	١٩٨٢
المرايا	رواية	١٩٧٢	الرابعة	١٩٨٠
الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣	الرابعة	١٩٨٠
الجريمة	مجموعة	١٩٧٣	الخامسة	١٩٨٤
الكرنك	رواية	١٩٧٤	السادسة	١٩٨٢
حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥	الخامسة	١٩٨٤
قلب الليل	رواية	١٩٧٥	الثالثة	١٩٨١
حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥	الرابعة	١٩٨٣
ملحمة الحرافيش	رواية	١٩٧٧	الثالثة	١٩٨٤
الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة	١٩٧٩	الثالثة	١٩٨٤
الشيطان يعظ	مجموعة	١٩٧٩	الثالثة	١٩٨٤
عصر الحب	رواية	١٩٨٠		
افراح القبة	رواية	١٩٨١	الثانية	١٩٨٣
ليالى الف ليلة	رواية	١٩٨٢	الثانية	١٩٨٣
رايت فيما يرى النائم	مجموعة	١٩٨٢	الثانية	١٩٨٤
الباقى من الزمن ساعة	رواية	١٩٨٢		
امام العرش (حوار بين الحكام)		١٩٨٣		
رحلة ابن فطومة	رواية	١٩٨٣		
الجهاز السرى	مجموعة	١٩٨٤		
العائش فى الحقيقة	رواية	١٩٨٥		

تحت الطبع

يوم قتل الزعيم رواية
حديث الصباح والمساء رواية
صباح الورد مجموعة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه
٣٧ شارع كامل صدقى - الفجالة
ت ٩٠٥١٤٧ - ٩٠٧٥٩٢

رقم الايداع ١٥٧٥

الترقيم الدولى ٣ ـ ٩٦ ـ ٣١٦ ـ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٢٥

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه